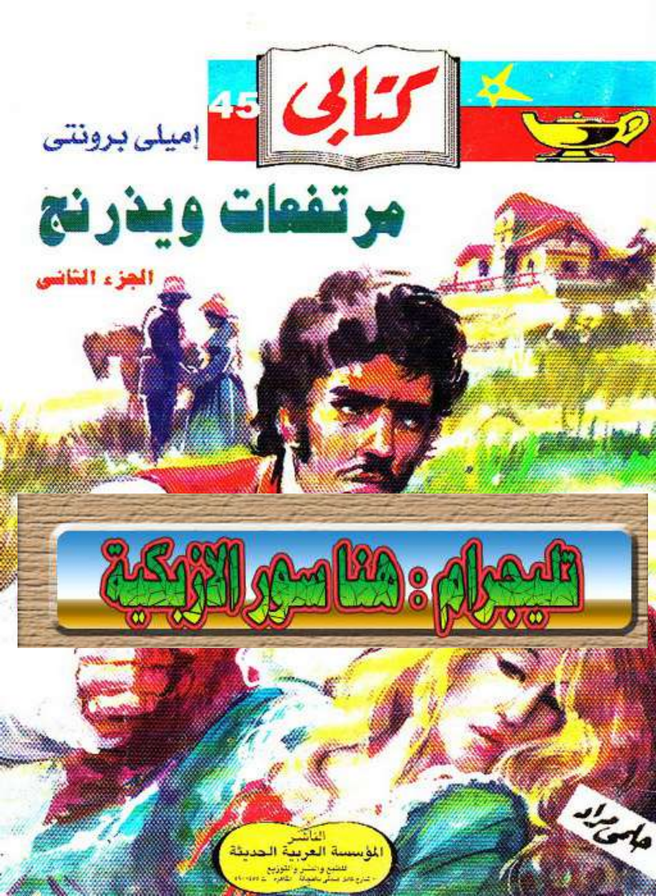

كتابى
45
إميلى برونتى
مرتفعات ويذرنج
الجزء الثانى
تليجرام : هنا سور الأزبكية
الناشر
المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع



مرتفعات ويذرنج

النص الكامل لقصة «إميلى برونتى»

الجزء الثانى

وصل ما انقطع ..

فى نهاية الجزء الأول من هــذه الترجمة الكاملة لقصــة (مرتفعات ويذرنج) ، تركنا « كاثرين ايرنشو » ــ زوجــة « ادجار لينتون » ــ راقدة فى فراش المرض ، تفضى لخادمتها « نللى » بذات نفسها ، بعد ان اعتصمت بمخدعها وأضربت عن تناول الطعام ثلاثة ايام ، على اثر المشادة العنيفة التى نشبت بينها وبين زوجها بسبب .. هيثكليف !.. وكانت مقدمات هذه الأزمة بين الزوجين قد بدأت حين اكتشفت كاثرين ان شقيقة زوجها ــ ايزابيلا ــ قد وقعت فى هوى هيثكليف ، فلما حاولت ان تنفرها منه بإظهار عيوبه ومساوئه لها بصراحة ، اهانتها العذراء الغريرة واتهمتها بالغــيرة والأنانية .. فما كان من كاثرين إلا أن انتقمت لكرامتها بأن افشت لهيثكليف السر الذى كان يجهله ، سر تدله ايزابيلا فى هواه !.. وانتهز الوضــيع الفرصة فدبر الخطة لاستغلال هذا الهوى الصبيانى وتنميته ، بغيــة مصــاهرة غريمه الارســتقراطى « ادجار لينتون » وإذلاله ! .. وذات يوم فاجــأ ايزابيلا فى الحديقة فقبلها .. ولمحته « نللى » فابلغت كاثرين بالأمر ! .. فثارت كاثرين فى وجهه وأمعنت فى تأنيبه . وانتهز ادجار الفرصــة ــ دون أن يقف على سبب المشادة ــ فأمر هيثكليف بالخروج وعدم العودة إلى الدار مرة اخرى ! .. وعلى اثر انصرافه ثارت كاثرين على زوجها واتهمته بالانصــات إلى حديثهــا مع هيثكليف من وراء

الباب ، ثم تظاهرت بالإصابة بنوبة صرع ! .. لكن « نللى » فضحت « تمثيلها » ، فانطلقت غاضــبة إلى مخدعهــا حيث اعتصمت به واضربت عن تناول الطعام ثلاثة أيام .. لكنها فى اليوم الثالث اضطرت إلى أن تطلب بعض الطعام . وحين علمت ان زوجها يقضى وقته فى غرفة المكتبة ، غــير مبال بقطيعتها ، صدمها إهماله إياها ، وأصــابها بشــبه نوبة من الهــذيان وهواجس الخــوف من الموت والأشــباح .. ثم راحت تذكر « نللى » ببدء أحداث الأسبوع المشئوم حين اعتصمت بمخدعها ، وكيف داهمها قبيل الفجر كابوس مروع خشيت منه على عقلها .. كابوس رأت نفسها فيه وقد عادت سنوات إلى الوراء ، إلى يوم مات ابوها وهى بعد صبية فى الثانية عشرة ، فأقام أخوها « هندلى » ستارا بينها وبين لقاء رفيق صباها هيثكليف ــ الذى كان بالنسبة لها كل حياتها وكيانها ! ــ الأمر الــذى قاست منه الشعور بالبؤس والعذاب .. وصور لها الكابوس كأنها تنام فى فراشــها القــديم بمنزل « مرتفعات ويذرنج » ، الفراش الشبيه بخزانة ذات فتحات مربعة ، من خشب البلوط ــ وهو الفراش الذى نام فيه مستر لوكوود ، مستأجر الدار ، فى بداية القصة ــ فلما أفاقت من الكابوس وجدت نفســها فى مخدعها بقصر « ثرشــكروس جــرانج » حيث أغفت وهى جالسة على الأرض مستندة إلى رجل المائدة !

والآن تستطيع أن تتابع القراءة من حيث تركنا « كاثرين تحدث « نللى » عن ذلك الكابوس

« .. رأيتنى قد عدت صبية ، وكان أبى قد ووري التراب للتو ، وبدأ عذابى وبؤسى من ذلك الفراق الذى فرضه هندلى بينى وبين هيثكليف .. كنت قد تركت وحـدى ، للمرة الأولى فى حياتى ، فلما أفقت من نعاس مزعج بعد ليلة حافلة بالبكاء والنشيج ، رفعت يدى لأزيح بهـا باب الخزانة المنزلق .. فإذا بها تصطدم بسطح المائدة ! .. وافقت من رؤياى فجـاة لأجدنى متكئة على بسـاط أرض مخـدعى !.. وإذا بآلامى الماضية تضيع فى لجة بعيـدة الغور من اليـأس . وليس فى وسعى ان افسر لك لماذا شعرت بالشقاء والتعاسة يحيطـان بى من كل جانب ، فلا بد أن ذلك كان شعورا وقتيا ، لأننى لا اكاد اجد له سببا او مبررا .. ولكن خيل إلى كأن يقظتى قد انتزعتنى ، وانا بعد فى الثانية عشرة ، من (المرتفعات) ، ومن كل حياتى ورفقتى المبكرة ، ومن كيانى كله ، كما كان لى هيثكليف فى ذلك الوقت .. وصيرتنى فجاة ، وبعنف ، إلى مسز لينتون ، سيدة « ثرشكروس جرانج » ، وزوجة رجـل غريب .. انه النفى والتشريد من كل ما كان دنياى وعـالمى .. الا ليتـك تتصورين لمحة من الهاوية التى ترديت فيهـا . وبوسعك ان تهزى راسك كما تشائين يا نللى ، ولكنك حقا قد ساعدت على عدم استقرارى ! .. كان ينبغى أن تتحدثى إلى ادجار . كان هذا واجبك حقا .. وأن ترغميه على ان يدعنى فى سلام وهدوء .. آه !.. اننى اشتعل بالنيران ! .. ليتنى أكون فى الخلاء الآن . ليتنى أعود فتاة صغيرة من جديد ، جريئة ، نصـف متوحشة ، حرة مطلقة السراح ، اسـخر مما يوجه لى من

إهانات ، ولا اجنى منها غضبا كشأنى الآن !.. لماذا تغيرت كل هذا التغير ؟.. لماذا تندفع الدماء فى عـروقى فائرة ثائرة لمجرد سماع كلمات قلائل ؟.. اننى واثقة من اننى سوف أعود لحالتى الأصيلة إذا وجدت نفسى بين الأحـراش فوق هـذه التلال . افتحى النافذة ثانية يا نللى ، ودعيها مفتوحة على مصراعيها . أسرعى .. لماذا لا تتحركين ؟

فقلت : « لأننى لا أريد ان تصابى ببرد يقتلك .. »

ـ بل تعنين انك لا تريدين ان تهيئى لى فرصة للحياة !.. ومع ذلك فاننى لم اصبح عاجزة عن الحراك بعد .. سـوف افتحها بنفسى ..

وهبطت من الفراش مسرعة ـ قبل ان استطيع منعها ـ فاجتازت الحجرة وهى تترنح فى مشـيتها ، ففتحت النـافذة واطلت منها وقد احنت جسمها إلى الأمام غير مبالية بالهـواء المثلج الذى كان يمزق كتفيها العاريتين كسـكين حـادة .. ورحت اتوسل إليها ، ثم حاولت ان استخدم القوة فى إرغامها على الرجوع عن النافذة ، ولكنى سرعان ما تبينت أن الحمى قد زادتها قوة ، حتى جاوزت كل ما لدى من قوة ! (وقد كانت فى الواقـع تحت تأثير الحمى ، إذ اقتنعت بذلك من افعالهـا اللاحقة وهذيانها الغريب) .. وكان القمر غائبا عن صـفحة السماء ، وكل شىء تحتنا يسبح فى لجة من الظلمة الحالكة . ولم يكن ثمة أى ضوء ينبعث من أى منزل قريب أو بعيد ، فقد اطفئت اضواء المنازل كلها منذ زمن طويل ، أما أضواء

(مرتفعات ويذرنج) فلم يكن يبين منها شىء البتة ، وبرغم ذلك فانها كانت تؤكد أنها ترى بريقها ، إذ صاحت فى لهفة :

ــ انظرى !.. هذه حجرتى والشمعة مضاءة فيها ، والأشجار تتارجح امامها ! .. اما الشمعة الاخرى فهى فى حجرة جوزيف العلوية . أن جوزيف ما زال ساهرا ، اليس كذلك ؟.. إنه ينتظر حتى أعود إلى المنزل ليوصد البوابة . حسنا ، سوف ينتظر طويلا !.. فهى رحلة شاقة ، والقلب الكسير لا يستطيع قطعها فى يسر !.. ولا بد لنا من المرور بكنيسة (جيمرتون) لكى نقوم بهذه الرحلة .. لقد طالما تحدينا اشباحها معا ، وراهن كل منا الآخر على الوقوف بين القبور ، ودعوة الأشباح للظهور !.. ولكن هبنى راهنتك الآن يا هيثكليف ، فهل تجرؤ على الوقوف هناك ؟ .. لو انك فعلت فسوف استبقيك معى ، فما كنت لأرقد هناك وحدى . فليدفنونى على عمق اثنى عشر قدما ، وليهيلوا احجار الكنيسة كلها فوق قبرى ، فلن استريح حتى القاك معى .. لن يقر لى قرار قط حتى افعل !

وتمهلت قليلا ، ثم استطردت وعلى محياها ابتسامة غريبة:

ــ إنه يفكر فى الأمر ، ويفضل لو ذهبت إليه ، بدلا من ان ياتى إلى .. ابحث عن طريقة لذلك إذن ! .. ولكن بعيدا عن فناء الكنيسة ! .. يا لك من بطىء متثاقل ! ولكن هدىء روعك ، فقد كنت دائما تتبعنى !

وإذ تبينت عبث مجادلتها ومعارضة أقوالها الجنونية ، فقد رحت افكر فى وسيلة أستطيع الوصول بها إلى شىء اغطيها به او الفه حولها ، دون أن تتخلى قبضتى عن الإمساك بها (فما كنت لآمن لها وادعها وحدها بجوار النافذة الفاغرة فاها) .. وفى تلك اللحظة اجفلت إذ سمعت صرير اكرة الباب وهى تدور ، ثم إذا بمستر لينتون يدخل الحجرة .. فقد كان فى المكتبة فلم يبارحها إلا فى تلك الساعة ، وبينما كان يجتاز الردهة سمع حديثنا فاثار فضوله ، او خوفه ، وارادان يعرف ما يحدث فى تلك الساعة المتأخرة .. فما كدت المح صيحة الدهشة التى تجمعت على شفتيه ، إذ شهد المنظر الذى طالعه ، وجو الحجرة القارس ، حتى هتفت قائلة ، لأحول دون انطلاق تلك الصيحة :

ــ أواه يا سيدى !.. ان سيدتى المسكينة مريضة ، وقد تغلبت على ، فلم أعد استطيع تهدئتها البتة .. ارجو أن تأتى وتقنعها بالذهاب إلى الفراش . انس غضبك يا سيدى ، لأنها من الصلابة بحيث لا يمكن تحويلها عما صممت عليه !

فصاح وهو يسرع إلينا : « كاثرين مريضة !؟ .. اغلقى النافذة يا أيلين .. كاثرين .. لماذا ؟ » .

وكف عن الكلام بغتة ، إذ كان منظر مسز لينتون المشعث ، وشحوبها الشديد ، قد الجم لسانه وشله عن النطق ، ولم يعد قادرا إلا على نقل نظراته بينها وبينى فى دهشة وارتياع .. فتابعت الحديث قائلة :

ــ لقد لبثت هنا كل هذه المدة ، تجتر أحزانها ، لا تذوق طعاما ، ولا تنفس عن صدرها لمخلوق ، فلم تسمح لأحدنا بالدخول عليها إلا الليلة ، ولذلك لم يكن فى وسعنا أن نخبرك عن حالتها ــ إذ كنا أنفسنا نجهلها ــ ولكن أرجو أن يكون الأمر بسيطا ..

وقد شعرت بأننى كنت انطق بهذه العبارات فى ارتباك وتلعثم ، فنظر السيد إلى عابسا ، ثم قال فى صرامة : « أترين الأمر بسيطا ، يا ايلين دين ؟.. سوف يكون عليك أن تفسرى مسلكك إذ كتمت ذلك عنى ، فيما بعد .. »

ثم اخذ زوجته بين ذراعيه ، وراح ينظر إليها فى ألم وأسى .. فلم يبد فى نظراتها ، فى بادىء الأمر ، ما ينم على أنها قد عرفته !.. كانت نظراتها الشاردة لا تراه ولا تتبينه . ومع ذلك كانت النوبة الثائرة قد بدأت فى الهدوء ، فما أن تحولت عيناها عن الظلمة الخارجية الحالكة ، وبدأت تركز انتباهها فيه رويدا رويدا ، حتى عرفت من الذى كان يحوطها بذراعيه ، فقالت فى انتفاضة غاضبة :

ــ آه !.. هل أتيت يا ادجار لينتون ؟.. انك احد تلك الأشياء التى يجدها المرء دائما كلما كان فى غير حاجة إليها ، وعندما يحتاج إليها لا يجدها قط !.. واحسب اننا سوف يكون لدينا الكثير من الأحزان الآن ــ بل انا واثقة من ذلك ــ ولكنها لا يمكن أن تحول بينى وبين مسكنى الضيق هناك ! .. مسكنى ومستقرى وموئل راحتى ، حيث قدر على أن

ارقد فيه قبل انقضاء الربيع . ولكنه لن يكون بين قبور آل لينتون ، تحت سقف الكنيسة ، وإنما فى الهواء الطلق ، فوق الروابى ، لا يعلوه سوى قائم من الحجر !.. اما أنت فلك أن تذهب حيث يسرك الذهاب ، فاما أن تمضى إليهم أو تأتى إلى !

ففحص السيد بريقه وهو يقول : « ماذا فعلت بنفسك يا كاثرين ؟.. الم اعد شيئا بالنسبة إليك ؟ وهل تحبين ذلك المنكود هيث .. ؟ »

فصاحت مسز لينتون : « صه ! .. اسكت . لو ذكرت هذا الاسم فسوف انهى المشكلة فى الحال ، بوثبة من النافذة ! .. ان ما تلمسه الآن قد يكون لك ، ولكن روحى سوف تكون فوق قمة ذلك التل قبل أن تضع يديك على ثانية .. اننى لا أريدك يا ادجار .. بل لم يعد فى وسعى ان أريدك ! .. ارجع إلى كتبك ، فكم يسرنى ان لديك ما يسليك ويسرى عنك . اما أنا ، فكل ما كان لك منى ، قد ذهب وولى ! »

فتدخلت قائلة : « ان عقلها يهيم فى آفاق مجهولة يا سيدى ، لقد قضت الليلة باسرها تهذى بكلام لا معنى له .. ولكن دعها تنل نصيبا وافرا من الراحة ، وقسطا كافيا من العناية ، وسوف تستعيد قواها ومرحها .. يجب أن نحذر ، من الآن فصاعدا ، من إغضابها .. »

فأجاب مستر لينتون : « لست أريد منك المزيد من النصائح . انك تعرفين طبيعة سيدتك ، ومع ذلك شجعتنى

على مضايقتها !.. ثم لم تلمحى لى مرة واحدة عن حالتها طيلة هذه الأيام الثلاثة !.. الا ما أقسى قلبك ! إن شهورا من المرض ما كانت لتحدث بها مثل هذا التغيير ! »

فبدأت أدافع عن نفسى ، شاعرة بأن من الظلم ان الام بسبب المشاكسات الخبيثة التى يأتيها شخص آخر غيرى !.. فصحت قائلة : « لقد كنت أعرف ما فى طبيعة مسز لينتون من صلابة الراى وحب السيطرة والتسلط ، ولكننى لم أكن اعرف رغبتك فى تغذية طباعها الحادة الضارية والاستزادة منها !.. لم أكن اعرف أننى فى سبيل مرضاتها وتدليلها يجب أن اتغاضى عما يفعله مستر هيثكليف !.. لقد أديت واجبى كخادم امينة عندما اخبرتك ، وهأنذا اتقاضى الأجر اللائق بخادم امينة !.. حسنا ، إن ذلك يعلمنى ان أكون أشد حذرا ، وعليك فى المرة القادمة أن تجمع معلوماتك بنفسك !! »

– فى المرة القادمة التى تأتين لى فيها بقصة جديدة ، سوف تتركين خدمتى يا ايلين دين !

– احسبك لا تريد أن تسمع شيئا عن هذا الأمر بعد الآن يا مستر لينتون ؟ .. إذن فقد نال هيثكليف اذنك لمغازلة الآنسة ، وانتهاز كل فرصة يتيحها له غيابك لياتى ويسمم افكار السيدة ضدك ؟

وعلى الرغم من حالة الذهول التى كانت فيها كاثرين ، فإن ذهنها كان مرهفا وعلى وعى بحديثنا ، إذ هتفت فى حرارة : « آه » لقد لعبت ايلين دور الجاسوس الخائن !.. ان ايلين

هى عدوى الخفى فى هذا المنزل .. انت أيتها الساحرة الشمطاء ، إذن فقد كنت تجمعين السهام لترمينا نحن بها ؟ دعنى .. دعنى ، سوف أجعلها تتحسر على ما فعلته .. سوف اجعلها تلقى جزاء جحودها ! »

وكانت عيناها تومضان ، وتتوهجان فى ثورة جنونية ، وراحت تناضل فى سبيل الخلاص من بين ذراعى لينتون .. فلم احس ميلا إلى البقاء حتى تنفذ وعيدها ، وعزمت على أن انشد معونة الطبيب ، من تلقاء نفسى وتحت مسئوليتى ، فأسرعت بمغادرة الحجرة ، ثم المنزل كله .. وفيما كنت اجتاز الحديقة إلى الطريق ، فى موضع كان سور الحديقة عنده يحمل خطافا مما تعلق فيه اعنة الجياد ، لمحت جسما أبيض اللون يتحرك حركة غير منتظمة ، لا شأن للرياح فى احداثها .. وعلى الرغم من اننى كنت فى عجلة ، إلا اننى تلبثت ريثما افحص ذلك الشىء ، حتى لا تخامرنى الهواجس فيما بعد فتثير فى خيالى الاقتناع بأن ما رأيته كان عفريتا من الجان ! .. وكم كانت دهشتنى وحيرتى عندما اكتشفت ، بطريق اللمس اكثر من الرؤية ، انه كان كلب مس ايزابيلا الصغير « فانى » ، معلقا فى الخطاف من رقبته بمنديل ، وفى الرمق الأخير من حياته !.. وأسرعت بتخليص الحيوان المسكين ، وانزلته إلى الحديقة ، وكنت قد رايته يتبع سيدته إلى حجرتها بالطابق العلوى عندما أوت إلى فراشها ، فأخذنى العجب مما اتى به إلى الحديقة ، ومن ذلك الشرير الذى كاد ان يقتله .. وبينما كنت احل عقدة المنديل من حول الخطاف ،

بلغ مسامعى وقع حوافر جواد ينطلق بسرعة كبيرة عن مبعدة .. ولكن كان لدى من الشواغل التى تملأ تفكيرى . ما جعلنى لا اعير صوت الجواد اهتماما ، ولو انه كان صوتا غريبا فى هذا المكان فى الساعة الثانية من الصباح !

ومن حسن الحظ ان مستر كينيث كان يغادر منزله لزيارة مريض فى الريف ، عندما بلغت الشارع الذى يقيم فيه ، فما ان سمع روايتى عن مرض كاثرين لينتون حتى عدل عن طريقه وعاد معى فى الحال . وكان رجلا بسيطا صريحا لا يعرف المداورة ، فلم يخف شكه فى نجاتها من هذه الصدمة الثانية ، ما لم تكن اكثر خضوعا لتعليماته واوامره مما بدا منها فى المرة الأولى ، ثم استطرد يقول :

ــ اسمعى يا نللى دين .. اننى لا استطيع ان امنع نفسى من الاعتقاد بأن هناك سببا خارجيا لما اصابها ، فما هذه الأحداث التى تمر « بالجرانج » هذه الأيام ؟.. لقد بلغتنا انباء عجيبة هنا ، وفتاة قوية البنية مثل كاثرين لا يمكن ان تقع صريعة المرض بسبب شىء تافه ، كما ان هذا الطراز من الناس لا يمرضون بسهولة ، ومن العسير ان تصيبهم الحمى أو غيرها .. فكيف كانت البداية ؟

ــ سوف يخبرك السيد .. ولكنك تعرف آل ايرنشو تماما وتعرف حدة طباعهم ، التى بلغت مسز لينتون فيها اعلى مرتبة وبزتهم جميعا . وكل ما يمكننى قوله ان الأمر بدأ بشجار حاد ، وقد أصيبت بنوبة شديدة بينما كانت تمر بعاصفة من الغضب والانفعال الشديد ، او هذه قصتها على

الأقل ، لأنها فرت من الميدان عند احتدام العاصفة وحبست نفسها فى حجرتها ، ثم رفضت ان تتناول شيئا من الطعام ، وغدت الآن تتناوبها ساعات من الهذيان تارة ، ومن الاستغراق فيما يشبه الحلم تارة اخرى . وهى تعرف المحيطين بها ولكن عقلها يمتلىء بقدر عظيم من الأفكار والأوهام .

فقال كينيث متسائلا :

ــ احسب ان مستر لينتون سوف يأسف كثيرا ؟

ــ يأسف ؟.. إن قلبه سوف يتحطم لو اصابها سوء ! .. وارجو الا تثير فى نفسه القلق بأكثر من القدر الضرورى !

فقال رفيقى : « حسنا ، لقد حذرته .. وعليه أن يترقب عواقب إهماله لتحذيرى . الم تنعقد اواصر الود والألفة بينه وبين مستر هيثكليف أخيرا ؟ »

ــ إن مستر هيثكليف يكثر من التردد على (الجرانج) ، وإن كان ذلك يرجع إلى معرفة السيدة له منذ ان كان غلاما صغيرا ، اكثر من حب السيد لصحبته .. ولكنه فى الوقت الحاضر قد اعفى من مشقة الزيارة ، بعد ان بدر منه ما ينم على طموح مزعوم إلى يد مس لينتون .. ولست اعتقد ان احدا سوف يسمح له بزيارة البيت بعد ذلك ثانية ..

والقى الطبيب بسؤاله الثانى ، فقال :

ــ وهل قابلته مس لينتون بالاستخفاف وعدم الاكتراث ؟ فأجبته فى إحجام من متابعة الحديث فى هذا الموضوع :

ــ إنها لا تطلعنى على اسرارها ..

ـ كلا ، فهى فتاة ماكرة لا تطلع احدا على سرها ، ولكنهـا بلهاء حقا .. فقد سمعت من مصدر يوثق بكلامه انهـا كانت فى الليلة الماضية ـ ويا لها من ليلة ! ـ تتمشى مع هيثكليف فى الحقول الممتدة خلف منزلكم اكثـر من ساعتين .. وكان يستحثها ويلح عليها الا تعود إلى المنزل ثانية ، بل ترافقـه على ظهر جواده وتفر معه !.. وقد اخبرنى محدثى انها لم تستطع استمهاله إلا بعد ان عاهدته بكلمة الشرف على ان تستعد لذلك فى اول لقاء لهما بعد ذلك . اما متى يكون ذلك ، فان محدثى لم يسمعهما يحددان موعده .. ولكن عليك ان تنذرى مستر لينتون حتى يفتح عينيه جيدا !

وملأتنى هذه الأنباء بمخاوف جديدة ، فسبقت كينيث ، واسرعت أعدو عائدة إلى الدار . وكان الكلب الصغير ما زال ينبح فى الحديقة ، فتخلفت لحظة ريثما افتح له البوابة ، ولكنه بدلا من الاتجاه نحو باب المنزل انطلق يعدو هنا وهناك ويتشمم العشب ، وكان على وشك ان يهرب إلى الطريق لو لم امسك به واحمله معى إلى الداخل .. وقد تحققت شكوكى عندما صعدت إلى حجرة ايزابيلا ، إذ وجدتها خالية ! .. ولو اننى ذهبت إليها منذ ساعات قليلة ، فربما كان مرض مستر لينتون قد منعها من الإقدام على هذه الخطوة الطائشة ، ولكن ما الذى يمكن عمله الآن ؟.. كان هناك احتمال طفيف فى إدراكهما إذا اقتفى اثرهما فى الحال ، ولكنى لم اكن استطيع تتبعهما بنفسى ، أو أجرؤ على إيقاظ العائلة جميعا ، وإشاعة الفوضى والاضطراب فى المنزل كله .. وكذلك لم يكن

فى وسعى أن أبوح بالأمر للسيد الذى كانت نكبته الحالية تشغل كل أفكاره ، ولم يبق فى قلبه متسع لحزن جديد .. فلم أجد خيرا من أن أمسك لسانى وأدع الأمور تجرى فى مجراها . وإذ كان كينيث قد وصل ، رافقته إلى حجرة السيدة ـ وقد انقلبت سحنتى ـ لأعلن مقدمه . وكانت كاثرين وقتئذ تنام نوما مضطربا ، إذ كان زوجها قد افلح فى تهدئتها ، وتخفيف ثائرة نوبتها ، ووقف عند طرف الوسادة يرقب كل تبدل يطرأ على أساريرها التى تعبر عن ألم شديد ..

وبعد أن فحص الطبيب الحالة بنفسه ، أعرب عن أمله فى الوصول إلى نتيجة طيبة إذا استطعنا أن نحيطها دواما بجو من الهدوء والسكينة . وقد أفضى إلى بأن الخطر الداهم لم يكن فى موتها ، بقدر ما كان فى إصابتها بخلل دائم فى قواها العقلية !

ولم يغمض لى جفن فى تلك الليلة ، وكذلك مستر لينتون .. بل لم نذهب إلى فرشنا أو نحاول النوم قط . حتى الخدم استيقظوا قبل موعدهم المألوف بكثير ، وراحوا يتحركون فى المنزل بخطى خفيفة مسترقة ، ويتبادلون الكلام همسا كلما مر بعضهم ببعض خلال قيامهم بمهامهم . كان كل من فى الدار مستيقظا يقوم بعمله ، إلا مس ايزابيلا ، فراحوا يتهامسون عن نومها العميق ويعجبون منه !.. بل لقد سأل أخوها عما إذا كانت قد استيقظت من النوم ، وبدا متلهفا على وجودها ، وقد ساءه أنها لم تبد شيئا من القلق على زوجة أخيها .. وكنت أرتعد خشية أن يبعث بى لاستدعائها ، ولكن حدث ما كفانى

مشقة أن أكون أول من يعلن خبر فرارها : فان إحدى الخادمات ـ وهى فتاة طائشة كانت قد ذهبت إلى (جيمرتون) فى الصباح الباكر لتحضر شيئا من البلدة ـ أسرعت ترتقى الدرج ، مبهورة الأنفاس ، فاغرة الفم ، واندفعت إلى داخل الحجرة ، صائحة :

ـ آه !.. رحماك يا رب !.. ماذا سيحل بنا بعد ذلك ؟.. سيدى .. سيدى .. إن سيدتنا الصغيرة ..

فبادرتها زاجرة ، وقد اشتد بى الغضب من ضجيجها :

ـ صه !.. كفى عن هذه الجلبة !

وقال مستر لينتون : « أخفضى صوتك يا مارى .. ماذا هنالك ؟.. وما الذى الم بسيدتك الصغيرة ؟ »

ـ لقد ذهبت !.. ذهبت !.. وصديقك هيثكليف هو الذى فر بها !

فصاح ادجار ذاهلا ، وهو ينهض من مقعده فى انفعال شديد :

ـ هذا ليس صحيحا !.. بل لا يمكن أن يحدث قط !.. ما الذى انبت هذه الفكرة فى رأسك ؟.. وانت يا ايلين دين ، اذهبى وابحثى عنها . هذا أمر لا يمكن تصديقه .. بل لا يمكن أن يحدث !

وكان وهو يقول ذلك ، قد سار بالخادم العجول نحو الباب ، وعاد يسألها أن تبين له الأسباب التى تجعلها تؤكد هذا الفرار .. فغمغمت تقول متلعثمة : « لماذا ؟.. لقد

التقيت فى الطريق بالغلام الذى يحضر لنا اللبن ، فسألنى عما إذا كانت المتاعب قد ثارت فى (الجرانج) ، وحسبته يقصد مرض السيدة ، فاجبته بالإيجاب ، وعندئذ قال : « أظنكم أرسلتم من يقتفى أثرهما ؟ » ، فحملقت فيه فى دهشة ادرك منها أننى لا أعرف شيئا عن الحقيقة ، وذكر لى كيف أن سيدا وسيدة توقفا عند حانوت الحداد ، على بعد ميلين من (جيمرتون) ، ليصلحا حدوة جوادهما ، بعد منتصف الليل بقليل .. وكيف نهضت ابنة الحداد لتستطلع أمرهما خفية ، فعرفتهما على الفور .. ولاحظت أن الرجل ـ وكان هيثكليف بلا ريب ، فان أحدا لا يخطىء معرفته ـ قد دس فى يد أبيها جنيها ذهبيا اجرا له على عمله . وكانت السيدة تلف ياقة المعطف حول وجهها ، ولكنها طلبت جرعة من الماء ، وبينما كانت ترشفها ، سقطت ياقة المعطف فرأت الفتاة وجهها جليا وعرفتها . وكان هيثكليف يمسك عنان الجواد بكلتا يديه وقد انطلقا به فى سرعة عظيمة ، بالقدر الذى تسمح به وعورة الطريق ، وهما يتنكبان القرية فى سيرهما . ولم تقل الفتاة شيئا لأبيها ، ولكنها نشرت الخبر فى (جيمرتون) كلها هذا الصباح !

وأسرعت اتقصى الأمر فى حجرة ايزابيلا ، من الناحية الشكلية ، ثم عدت لأؤيد رواية الخادم . وكان مستر لينتون قد رجع إلى مقعده بجوار الفراش ، فلما احس بعودتى ، رفع ناظريه نحوى ، ثم خفضهما ثانية ، بعد أن قرأ فى وجهى

معنى ما علاه من وجوم ، وأخلد إلى الصمت ، فلم يصدر أمرا أو ينبس بكلمة واحدة .. فسألته قائلة :

– الا نحاول اتخاذ أية تدابير للحاق بها وإعادتها إلى المنزل ؟.. وكيف ترى أن نفعل ذلك ؟

فاجابنى السيد : « لقد ذهبت بملء رغبتها وارادتها ، ومن حقها ان تفعل ذلك ما دام يسرها .. فلا تشغلينى بأمرها بعد ذلك قط ، لانها من الآن تعد شقيقتى اسما فحسب .. لا لأننى أتبرأ منها ، بل لأنها هى التى تنكرت لى وبرئت منى .. »

وكان ذلك كل ما قاله فى هذا الموضوع ، فلم يتخذ سبيلا واحدا للبحث عنها والتقصى عما تم من أمرها ! ولم يذكرها على لسانه فى اى وقت ، إلا عندما امرنى بأن أرسل إليها فى منزلها الجديد ، اينما كان مقره – عندما يبلغنى خبر عنه – كل ما لها فى الدار من متاع ..

الفصل الثالث عشر

ظل الهاربان غائبين زهاء شهرين دون أن نسمع عنهما شيئا . وفى خلال هذين الشهرين كانت مسز لينتون فريسة لأسوأ صدمة – مما يسمى بالحمى المخية – حتى قهرتها وتغلبت عليها . وما من أم رؤوم كان يمكن ان ترعى طفلها الوحيد وتمرضه بتفان وإخلاص أكثر مما كان ادجار يرعاها ويمرضها .. كان يسهر عليها الليل والنهار ، ويحتمل فى صبر لا ينضب معينه جميع المضايقات والمتاعب التى يمكن أن تنشأ عن أعصاب سريعة التهيج وعقل مرتج .. وكانت فرحته وشكرانه ، عندما أعلن الطبيب زوال الخطر عنها ، لا يعرفان حدودا لانطلاقهما ، برغم ما لا حظته كينيث من أن التى أنقذها ادجار من القبر سوف تجزى رعايته وعنايته بأن تكون مصدر قلق دائم له فى المستقبل !.. والواقع أنه كان يضحى بصحته وقوته فى سبيل المحافظة على حطام بشرى ، لا أكثر ولا أقل . كان يقضى الساعة تلو الساعة جالسا إلى جانبها يرقب صحتها البدنية وهى ترتد إليها تدريجيا ، ويعلل النفس بالأمانى الجياشة – الخيالية – فى أن عقلها سوف يعود إلى توازنه الصحيح أيضا ، وأنها لن تلبث حتى ترجع إلى حالتها الطبيعية التى كانت عليها من قبل ..

وكانت أول مرة غادرت فيها حجرتها ، بعد ذلك المرض الطويل ، فى بداية شهر مارس التالى ، وكان مستر لينتون

قد وضع فوق وسادتها ، قبل أن تستيقظ فى الصباح ، حفنة من زهور الأقحوان الذهبية ، فلما أفاقت من نومها لمحتها عيناها ـ اللتان ظلتا طويلا لا تعرفان بريق السرور ـ فتألقتا فى فرح وابتهاج ، وراحت تضم الزهور معا ، هاتفة :

ـ هذه بواكير الزهور فى (المرتفعات) .. وهى تذكرنى بالنسمة العليلة ، والشمس الساطعة الدافئة ، والثلوج الذائبة .. قل لى يا ادجار ، الا تهب نسائم الجنوب الآن ؟ .. وهل اختفت الثلوج أم كادت ؟

ـ لقد اختفت الثلوج تماما من هنا يا عزيزتى ، ولست أرى على طول تلال البرارى إلا بقعتين بيضاوين .. كما أن السماء زرقاء صافية ، والقنابر تصدح بأنغامها الشجية ، والجداول والنهيرات ملأى بالماء حتى حافتها .. لقد كنت فى مثل هذا الوقت من ربيع العام الماضى ، يا كاثرين ، أتوق إلى وجودك تحت سقف هذا البيت ، ولكنى الآن أود لو أنك كنت فوق هذه التلال ، فان الهواء يهب عليها جميلا عليلا ، حتى لأحس بأنه خليق بأن يشفيك تماما ..

فقالت المريضة : « لن أذهب إلى هناك قط إلا مرة واحدة أخرى .. وفى تلك المرة سوف تتركنى هناك ، وسوف أبقى بها أبدا . وفى الربيع القادم سوف تتوق ثانية لأن تجدنى تحت سقف هذا البيت ، وسوف تنظر إلى الوراء وترى أنك كنت سعيدا اليوم ! »



فتألقتا فى فرح وابتهاج ، وراحت تضم الزهور معا ، هاتفة :
ـ هذه بواكير الزهور فى (المرتفعات) .

فغمرها لينتون بفيض من الملاطفات الرقيقة ، وحاول أن يبهجها بكلمات الحب والحنان ، ولكنها راحت تنظر إلى الزهور ساهمة ، وما لبثت أن تركت قطرات الدمع تتجمع على أهدابها ثم تنساب فوق وجنتيها ، لا تكف ولا تغيض .. وأدركنا جميعا أنها قد تحسنت حقا ، وأن اعتكافها الطويل فى مكان واحد هو السبب فى ذلك القنوط الذى يستبد بها ، والذى قد يفارقها لو بدلت المنظر الذى يحيط بها .. وأمرنى السيد بأن اشعل نارا فى حجرة الجلوس التى ظلت مهجورة أسابيع عدة ، وأن أضع مقعدا مريحا فى أشعة الشمس بجوار النافذة ، ثم أحضرها من الطابع العلوى .. فجلست طويلا تستمتع بالدفء الجميل ، وقد انتعشت كثيرا – كما توقعنا – من منظر الأشياء المحيطة بها ، فهى وإن كانت مألوفة لديها ، إلا أنها لا تقترن فى ذهنها بتلك الذكريات المروعة لحجرة مرضها البغيضة .. فلما حل المساء ، كانت تبدو منهوكة القوى إلى حد كبير ، ومع ذلك لم تفلح التوسلات أو وسائل الاقناع فى إغرائها على العودة إلى حجرتها ، فاضطررت إلى اعداد اريكة حجرة الجلوس لتتخذ منها فراشا لرقادها ريثما يمكن إعداد حجرة أخرى لها .. وقد اعددنا لها هذه الحجرة – التى ترقد أنت فيها الآن يا مستر لوكوود – حتى نجنبها مشقة الصعود والهبوط إلى الطابق العلوى ، فهى – كما تعلم – فى نفس الطابق الذى تقع فيه حجرة الجلوس .. وسرعان ما استعادت بعض قوتها بحيث امكنها الانتقال من إحداهما للأخرى مستندة إلى ذراع ادجار . آه ، لقد ظننت وقتئذ أنها سوف تشفى حقا ، ما دامت تلقى

كل هذه الرعاية والعناية . وكان ثمة سببان لان نرجو ذلك ونتمناه ، فان على حياتها تتوقف حياة اخرى ، كما اننا كنا نداعب الأمل فى أنه لن تمضى فترة وجيزة حتى تقر عينا مستر لينتون ويبتهج قلبه بمولد وريث له يقى املاكه من أن تقع فى قبضة شخص غريب ..

ولا بد لى من القول بأن ايزابيلا أرسلت إلى أخيها ، بعد نحو ستة أسابيع من رحيلها ، خطابا موجزا تعلنه فيه بزواجها من هيثكليف .. وكان خطابا جافا باردا ، ولكنها ذيلته ، وبالقلم الرصاص ، باعتذار غامض ، ورجاء رقيق بأن يذكرها ، وأن يصفح عنها ، إذ كان تصرفها قد أغضبه ، مؤكدة أنها لم تستطع دفع الأمر وقتئذ ، وأنها الآن بعد أن تم كل شىء ، لا تملك القوة على نقض ما أبرمته . واعتقد أن لينتون لم يرد على هذا الخطاب ، فلم يكد يمر عليه أسبوعان حتى تلقيت خطابا طويلا رأيت من العجيب صدوره من قلم عروس فرغت لتوها من شهر العسل .. وسوف اتلو عليك هذا الخطاب ، لانني ما زلت محتفظة به ، إذ أن آثار الموتى عزيزة غالية ، إذا كانوا فى حياتهم أعزاء محبوبين :

« عزيزتى ايلين ..

« وصلت فى الليلة الماضية إلى (مرتفعات ويذرنج) ، فسمعت – للمرة الأولى – أن كاثرين كانت ، وما زالت ، تعانى مرضا خطيرا . واحسب انه ما ينبغى لى أن أكتب إليها ، كما أن أخى إما أن يكون شديد الغضب منى ، أو شديد الأسى

على ، بحيث لم يرد على خطابى إليه .. ومع ذلك فلا بد لى من أن أكتب إلى شخص ما ، وليس أمامى من أكتب إليه سواك .. أخبرى ادجار اننى اهب الدنيا بأسرها فى سبيل أن أرى وجهه ثانية ، وأن قلبى عاد إلى (ثرشكروس جرانج) بعد أن غادرتها بأربع وعشرين ساعة ، بل انه هناك الآن ، مليئا بالمشاعر الحارة نحوه ونحو كاثرين !.. ومع ذلك فليس فى مقدورى أن الحق به (وقد وضعت خطا تحت هذه العبارة لتؤكدها) ، فلا حاجة بهما لأن يتوقعا عودتى ، وليستنتجا من ذلك ما يشاءان ، ولكن حذار أن يعزوا ذلك إلى خور فى ارادتى أو فتور فى عاطفتى ..

« هذا ما أود أن تقوليه لأخى ، أما باقى الخطاب فلك وحدك . وأود أن ألقى عليك سؤالين ، أولهما هو : كيف احتفظت على الاحتفاظ بالعواطف العادية للطبيعة البشرية عندما كنت تقيمين هنا ؟.. فاننى لا اتبين أية مشاعر يمكن أن يشاطرنى فيها أولئك الذين يحيطون بى !

« أما السؤال الثانى ، فاننى أهتم به اهتماما عظيما . وهاك هو : هو مستر هيثكليف إنسان من البشر ؟.. وإن كان إنسانا فهل هو مجنون ؟.. وإذا لم يكن ، فهل هو شيطان ؟ .. اننى لن أخبرك بالأسباب التى تجعلنى أوجه إليك هذا السؤال ، ولكنى أتوسل إليك أن تشرحى لى — إذا استطعت — حقيقة ذلك المخلوق الذى تزوجته . أعنى عندما تحضرين لرؤيتى ، ويجب أن تحضرى سريعا يا ايلين ، لا تكتبى لى ، ولكن تعالى ، وليتك تحضرين لى شيئا من ادجار ..

« واسمعى الآن كيف استقبلت فى منزلى الجديد ، الذى أدخل فى روعى أن (المرتفعات) سوف تكونه . ولست أذكر هذه الأمور التى من قبيل نقص وسائل الراحة الخارجية ، إلا لتسلية نفسى !.. فانها لا تشغل افكارى البتة إلا فى اللحظة التى أشعر فيها بالحاجة إليها . وأننى لخليقة بأن أرقص طربا واضحك ملء قلبى لو اننى وجدت هذا النقص هو كل ما أعانيه من شقاء ، وأن ما عدا ذلك ليس إلا حلما شيطانيا رهيبا !

« كانت الشمس تغرب وراء (الجرانج) عندما استدرنا نحو البرارى ، وكانت الساعة وقتئذ ، فيما أعتقد ، قد بلغت السادسة .. فتوقف رفيقى ما يقرب من نصف الساعة ليفتش البستان ، والحدائق ، بل والمنزل نفسه ، بقدر ما استطاع إلى ذلك سبيلا ، وهكذا كان الظلام قد أرخى سدوله عندما ترجلنا عن جوادينا فى الفناء المرصوف « للمرتفعات » فلم يلبث أن خرج زميلك السابق الشيخ ، جوزيف ، ليستقبلنا على ضوء الشمعة الخافت . ولقد فعل ذلك فى بشاشة ولطف يضافان إلى سمعته الطيبة المعروفة !.. فقد كان أول ما فعله هو أن رفع مشعله أمام وجهى مباشرة ، وراح يحملق فيه بعينين تضيقان وتفيضان خبثا ولؤما ، ثم قلب شفته السفلى ، واشاح بوجهه عنى . وبعد ذلك قاد الجوادين إلى الحظيرة ، وعاد ليوصد البوابة الخارجية بالسلاسل والأقفال ، كأننا نعيش فى إحدى القلاع القديمة !

« وبقى هيثكليف ليتحدث إليه ، أما أنا فقد دخلت إلى المطبخ ، ووجدته قذرا مشوشا لا نظام فيه ولا ترتيب .

واحسب انك لو رأيته الآن لما عرفته ، فقد تغير كثيرا عما كان عليه عندما كان معهودا به إليك . وكان يقف إلى جوار الموقد غلام زرى الهيئة ، قوى البنية ، قذر الثياب ، يشـبه كاثرين فى عينيها وفمها ، فقلت فى نفسى : انه ابن أخ زوجة ادجار . ومن ثم فهو ابن أخيه حكما ، وبالتالى فانه يعد ابن اخى على نحو أو آخر ، وينبغى لى أن أصافحه ، بل ينبغى لى ـ نعم ـ أن اقبله !.. فمن الصواب ان انشىء معه تفاهما طيبا منذ البداية ..

« اقتربت منه وحاولت ان اتناول يده المكتنزة قائلة :

ـ كيف حالك يا عزيزى ؟

« فأجاب فى تمتمة لم افهم منها شيئا ، وعندئذ كانت محاولتى الثانية للحديث معه :

ـ هل سنكون أصدقاء يا هيرتون ؟

« فكان جزائى على هذا الاصرار فى الحديث معه ، أن اطلق من فمه سبابا قبيحا ، وتوعدنى بأن يطلق (ثروتلر) فى أثرى إذا لم « أره عرض اكتافى » : بل لقد أيقظ كلبا ضخما ضاريا من وكره فى أحـد الأركان ، وراح يهمس إليه قائلا : « هيا ياثروتلر .. عليها يا ولد ! » .. ثم تحول نحـوى يسألنى فى غطرسة . « والآن .. هل تذهبين لحال سبيلك ؟ »

« فدفعنى حب الحياة إلى الامتثال لأمره ، وخطـوت فوق العتبة إلى الخارج لأنتظر عودة الآخرين فأدخل معهم . ولكن مستر هيثكليف لم يظهـر فى أى مكان ، اما جـوزيف ،

الذى ذهبت إليه فى الحظيرة ورجوته أن يصحبنى إلى الداخل ، فقد راح يحملق فى وجهى ويغمغم بكلام لا أسمعه ، ثم شـمخ بأنفه وقال : « مهـلا ، مهلا . هل سمع إنسان تقى قط بشىء كهذا ؟.. ما هذا الكلام الذى تمضغينه وتتشـدقين به ؟.. وكيف يمكننى أن أفهم ما تقولين ؟ » .. فظننته مصابا بالصمم ، وإن كانت خشونته وفظاظته قد أثارت اشمئزازى البـالغ ، وصحت قائلة : « لقد كنت أرجوك أن تحضر معى إلى داخل المنزل .. »

ـ لا تطلبى منى شيئا كهذا .. فلدى عمل آخر اقوم به !

« وعاد يستأنف عمله ، وهو يحرك فى الوقت نفسه صفحتى مصباحه ، متأملا فى ازدراء شديد ثوبى ووجهى . (أما الأول فكان بالغ الأناقة والجمال ، وأما الثانى فانى واثقة من أنه كان يحمل من الحزن ما كان يوده ويشتهيه !) .. فسرت فى الفناء حول المنزل ، وولجت كوة صغيرة ، وجدت نفسى بعدها أمام باب مغلق أبحت لنفسى ان أطرقه راجية ان اجد أمامى خادما آخر أكثر أدبا . وما لبث الباب أن فتح بعـد فترة وجيـزة ، ووقف فيه رجل طـويل القامة شديد النحـول ، بغـير رباط للعنق ، فضلا عن رثاثة الثياب التى يرتديها ، وكانت أساريره مختفية تحت كتل من الشعر المشعث الذى يملأ وجهه ويتدلى حتى يصل إلى كتفيه . وكانت عيناه ـ هو الآخر ـ تشـبه عينى كاثرين ، على نحو مخيف ، وإن تجردتا من جمـال عينيها .. فابتدرنى فى عبوس وصرامة :

ــ ما شأنك هنا ؟.. ومن انت ؟

ــ لقد رأيتنى من قبل يا سيدى ، وكان اسمى وقتئذ ايزابيلا لينتون . غير أننى تزوجت من مستر هيثكليف اخيرا ، فاحضرنى إلى هنا ، بإذنك طبعا !

« فسألنى ، وعيناه تقدحان شررا كذئب جائع : « هل عاد إذن ؟ »

ــ نعم .. لقد عدنا للتو ، ولكنه تركنى بجوار باب المطبخ . وعندما أردت الدخول ، كان ابنك الصغير يقف حارسا للمكان ، واستطاع بمعونة كلب من نوع البولدوج أن يخيفنى حتى وليت هاربة ..

« فزمجر مضيفى الجديد ، قائلا : « لقد احسن الوغد الجهنمى صنعا بالمحافظة على كلمته ! » .. ثم راح يحملق فى الظلام خلفى ، مؤملا أن يتبين هيثكليف ، وما لبث ان انطلق يغمغم طويلا بأقذع الفاظ السباب ، والوعيد بما كان سيفعله لو أن « الشيطان » خدعه ، وأخلف وعده ، فلم يعد !

« وندمت على محاولتى الدخول من هذا المدخل الثانى ، وكنت أكاد اميل إلى الفرار قبل أن يفرغ من سبابه ، ولكن قبل أن أستطيع تنفيذ تلك النية ، امرنى بالدخول ، ثم أوصد الباب خلفى بعد أن اغلقه . وكانت بالحجرة نار عظيمة مشبوبة ، وكان ذلك كل ما يضىء تلك الحجرة الفسيحة ، التى اكتسى بلاطها الأبيض لونا رماديا موحدا !.. اما الأطباق اللامعة البراقة التى كانت تجتذب انظارى عندما كنت احضر

للزيارة وأنا بعد فتاة صغيرة ، فقد انقلب بريقها إلى قتامة كئيبة بسبب ما علاها من قذارة وتراب ، شأنها فى ذلك شأن البلاط !

« وسألت هندلى ايرنشو عما إذا كان يجدر بى أن أدعو الوصيفة لترشدنى إلى إحدى حجرات النوم . ولكنه لم يتعطف على بجواب !.. كان يذرع الحجرة ذهابا وجيئة ، واضعا يديه فى جيوبه ، وقد بدا عليه أنه نسى وجودى تماما . كان من الجلى أن شرود ذهنه قد بلغ من العمق والاستغراق ، كما كان مظهره ينم على عداء للبشر جميعا ، ما جعلنى أحجم عن محاولة إزعاجه مرة أخرى .

« ولا أخالك تدهشين يا ايلين مما اعترانى من شعور بالكآبة والأسى ، وأنا جالسة فيما هو أسوأ من الوحدة ، فى تلك الحجرة غير المضيافة ، أفكر فى أنه على بعد اربعة أميال فحسب يقع منزلى المحبوب البهيج ، الذى يضم كل من احبهم على وجه الأرض ، وأن المحيط الأطلسى قد يكون هو الذى يفرق بيننا ، بدلا من هذه الأميال الأربعة ، التى يستحيل على اجتيازها . ورحت أسائل نفسى أين اذهب لأنال قسطا من الراحة ؟.. وكان حزنى ، الذى غلب كل حزن بجانبه ــ وأرجو الا تخبرى بذلك ادجار أو كاثرين ــ ينشأ من يأسى من العثور على شخص واحد يستطيع ، أو يود ، أن يكون حليفى ضد هيثكليف !.. لقد كنت انشد الملجأ والمأوى فى (مرتفعات ويذرنج) ، فى شىء من السرور والارتياح ، لأن ذلك الترتيب كان خليقا بأن يؤمننى من العيش معه على انفراد .

ولكنه ــ وا أسفاه ! ــ كان يعرف الناس الذين سوف نعيش بينهم حق المعرفة ، فكان لا يخشى فضولهم وتدخلهم ..

« وقضيت وقتا طويلا أليما جالسة أفكر .. ودقت الساعة الثامنة ، ثم التاسعة ، ومع ذلك كان رفيقى لا يزال يروح ويغدو من أقصى الحجرة إلى أقصاها ، وقد أحنى رأسه فوق صدره ، واستغرق فى صمت موحش ، لا تقطعه إلا همهمة خافتة ، أو تنهد مرير يفلت من بين شفتيه بين وقت وآخر . وكنت أرهف سمعى عسى أن أتبين صوت امرأة فى الدار ، وأملأ هذا الوقت الطويل بالأحزان الضارية ، والتكهنات المروعة عما ينتظرنى من مستقبل مشئوم ، وما لبثت أن عجزت عن كتمانها ، فانطلقت من بين شفتى فى أنين ونواح لم أستطع قمعهما .. ولم أشعر بارتفاع صوتى إلا عندما تمهل ابرنشو فى مشيته الرصينة أمامى ، وراح يحملق فى وجهى فى دهشة من يرانى لأول مرة ، فانتهزت فرصة استعادته شعوره وانتباهه ، وصحت :

ــ إننى متعبة من سفرى الطويل وأريد الذهاب إلى الفراش .. فأين الوصيفة ، أو أية خادم أخرى ؟.. أرشدنى إليها يا سيدى ما دامت لا تريد أن تحضر إلى !

« فأجابنى : « لا توجد هنا وصيفات أو خادمات .. وعليك أن تعنى بنفسك ! » .. وعندئذ رحت أنتحب فى أسى ، وقد أخرجنى التعب والبؤس عن وقارى ، وقلت : « ولكن أين ينبغى أن أنام إذن ؟ »

ــ سوف يريك جوزيف حجرة هيثكليف .. افتحى هذا الباب ، فتجديه هناك .

« فلما هممت بأن أطيعه ، أمسك بى فجأة ، واستطرد يقول فى أغرب صوت سمعته : « كونى فتاة طيبة ، وأوصدى باب الحجرة بالمفتاح ثم ضعى المزاليج وراءه . إياك أن تغفلى ذلك ! »

« ولم استسغ فكرة حبس نفسى مع هيثكليف فى حجرة واحدة بمحض رغبتى ، فقلت : « حسنا .. ولكن لماذا يا مستر ايرنشو ؟ » .. فأخرج من جيب صدريته مسدسا عجيب التكوين ، إذ كانت تتصل بماسورته سكين ذات حدين مرهفين ، يحركها لولب خفى ، ثم قال :

ــ انظرى .. إن هذه شديدة الاغراء لرجل يائس !.. أليس كذلك ؟.. اننى لا أستطيع أن أمنع نفسى من الصعود إلى الطابق العلوى كل ليلة ، وهذه فى يدى ، فأحاول فتح باب حجرته .. فلو وجدت الباب مفتوحا مرة ، فقد انتهى أمره ! .. اننى أفعل ذلك دواما ، حتى ولو كنت فى اللحظة السابقة مباشرة أفكر فى مئات الأسباب الكفيلة بأن أحجم عن هذه المحاولة !.. وما من ريب فى أن شيطانا خبيثا لا يفتأ يستحثنى على إحباط خططى ومشاريعى ، بتحريضى على قتله !.. وانك لتناضلين هذا الشيطان عبثا مهما طال بك المدى ، فعندما يحين الوقت ، فإن كل ملائكة السماء لن تستطيع إنقاذه !

« ورحت أرمق السلاح فى فضول وإمعان ، وقد طرات على ذهنى فكرة بشعة فظيعة : فكم أكون قوية حصينة لو استطعت أن أحرز مثل هذه الأداة !.. وأخذتها من يده ، ورحت أمر بأصابعى على النصل المرهف ، فبدت عليه الدهشة من ذلك التعبير الذى ارتسم على وجهى لحظة خاطفة . لم يكن فزعا ، وإنما كان جشعا وتلهفا !.. فأسرع باختطاف المسدس من يدى ، فى حرص الشحيح ، وأرجع السكين إلى مكانها ، ثم أعاده إلى مخبئة ، قائلا : « اننى لا أبالى أن تخبريه ، فدعيه يأخذ حذره ، واسهرى على حمايته .. وأرى انك تعرفين سوء ما بيننا من صلات ، فان الخطر الذى يتهدده لم يفاجئك ولم يرعك ! »

« فسألته : « ما الذى فعله هيثكليف معك ، وبماذا أساء إليك ، حتى تنطوى له على هذا الحقد المروع ؟ .. الا يكون اكثر حكمة وتعقلا أن تأمره بمغادرة الدار ؟ »

« فهدر ايرنشو بصوت كالرعد القاصف : « كلا .. وإذا اقترح أن يفارقنى ، فسوف يغدو جثة هامدة . ولو انك اغريته على هذه المحاولة ، فسوف تصبحين قاتلة !.. هل قضى على أن افقد كل شىء ، دون أن تكون لدى الفرصة لاستعادته ؟.. وهل قضى على هيرتون أن يعيش شحاذا ؟ آه ، يا للعنة !.. اقسم اننى سوف أستعيد كل شىء ، وسوف آخذ ماله وذهبه أيضا . ثم بعد ذلك دمه !.. أما روحه فستكون من نصيب الجحيم !.. ولسوف يزداد لظاها سعيرا ، عشرة أضعاف ، عندما يحل بها هذا الضيف ! » .

« .. ولقد سبق لك أن اطلعتنى ، يا ايلين ، على طباع سيدك السابق . ومن الجلى انه على حافة الجنون ، أو أنه كان كذلك ليلة الأمس على الأقل . وقد اقشعر بدنى من البقاء قريبة منه ، ورأيت أن شراسة الخادم الوقح تعد سارة لى نسبيا . وكان قد عاود سيره المهموم ، فمضيت نحو الباب ، ورفعت المزلاج ، ثم فررت إلى المطبخ .. فرأيت جوزيف منحنيا فوق الموقد ، يمعن النظر فى قدر كبيرة كانت تتأرجح فوقه ، بينما كان على المقعد بجواره قصعة خشبية ملأى بدقيق الشوفان . وكانت محتويات القدر قد بدأت تغلى ، فتحول إلى القصعة وهو يهم بدس يده فيها . وحدست أنه ربما كان يعد لنا العشاء ، وإذ كنت شديدة الجوع ، فقد عزمت على أن يكون ذلك الطعام مما أستسيغ تناوله .. وهكذا صحت به ، وأنا أبعد القصعة عن متناول يده :

ـ سوف أعد ، أنا ، هذا الثريد ..

« ومضيت أنزع قبعتى وثوب الركوب الذى كنت أرتديه ، واستطردت قائلة : « لقد أشار على مستر ايرنشو أن أعنى بنفسى ، وسوف أفعل .. فلن أقوم بدور السيدة بينكم ، حتى لا أموت جوعا ! »

« فجلس جوزيف على مقعد بعيد ، وراح يربت على جواربه المضلعة من ركبته حتى عقبه ، وهو يغمغم قائلا : « لعل هناك أوامر جديدة بعد ذلك !.. وإذا قدر لى أن أجد سيدة فوق رأسى ، بعد ان اعتدت أخيرا خدمة سيدين ، فعلى الراحة

والهدوء السلام !.. اننى ما فكرت قط فى أن أرى يوما أضطر فيه إلى ترك المنزل القديم ، ولكنى أخشى أن يكون الوقت قد حان لذلك ! »

« .. فلم أعر هذه المناحة أى التفات ، ومضيت مندفعة فى عملى ، وقد تنهدت إذ ذكرت زمنا كان ما أقوم به الآن خليقا بأن يبدو أضحوكة لطيفة .. ولكن سرعان ما اضطررت لطرد هذه الذكرى ، فان استعادة سعادتى الماضية أمام ناظرى كانت تسبب لى عذابا وشقاء لا قبل لى باحتماله . وكنت كلما اشتد خطر استحضار هذا الشبح من أعماق الماضى ، أسرعت فى تقليب الثريد ، ومتابعة قذف قبضات الدقيق فى القدر . وكان جوزيف يرقب طريقتى فى الطهى بسخط متزايد ، وما لبث أن صاح قائلا : « هيرتون ، انك لن تتناول عشاءك من الثريد الليلة يا بنى !.. فلن يكون إلا كتلا كبيرة جافة كقبضة يدى . ما هذا ؟.. لو كنت فى مكانك لألقيت القصعة كلها بما فيها فى القدر !.. ما شاء الله !.. وما هذا الدق بالمغرفة ؟.. من حسن الحظ أن قاع القدر لم يسقط فى النار ! »

« واعترف أن الثريد عندما سكب فى الأطباق كان غليظا خشنا . كانت أربعة أطباق هى التى أعدت للعشاء ، كما احضروا ابريقا كبيرا مملوءا باللبن الطازج ، أمسك به هيرتون وراح يشرب من فوهته ، واللبن يسيل من بين شفتيه المدودتين .. فاعترضت ، ورغبت إليه فى أن يأخذ نصيبه

فى قدحه ، مؤكدة اننى لا أستطيع أن أذوق طعاما أو شرابا تتبادله الأفواه بهذه القذارة . ولكن المهرج العجوز راى أن يبدى شعوره بالاهانة البالغة التى لحقت به وبالأسرة من ملاحظتى الدقيقة ، فراح يردد القول فى تأكيد بأن « الصبى لا يقل طيبة » عنى ، و « لا يقل تهذيبا ونظافة » ، ويعجب كيف استطعت أن أظهر بهذه الخيلاء وهذا الغرور !.. وفى الوقت نفسه كان الوغد الصغير مستمرا فى لعق اللبن ، وهو يحدجنى بنظرات نارية ملؤها التحدى ، وقد ترك لعابه يختلط باللبن فى الابريق !

« عندئذ قلت : « سوف أتناول عشائى فى حجرة أخرى .. أيوجد لديكم ما تسمونه حجرة الجلوس ؟ » .. فأجابنى ساخرا متهكما : « حجرة الجلوس ؟.. حجرة الجلوس ؟.. كلا ، لا توجد لدينا حجرات للجلوس !.. إذا كانت صحبتنا لا تروقك ، فهناك السيد اذهبى إليه . وإذا لم يرقك السيد فها نحن تحت أمرك ! » .

« فأجبته قائلة : « سوف أصعد إلى الطابق العلوى .. ارنى حجرة أجلس فيها . » .. وكنت قد وضعت طبقى فوق صحفة ، كما ذهبت بنفسى فأحضرت بعض اللبن النظيف ، فنهض جوزيف بعد تأفف وتذمر عظيمين ، وتقدمنى فوق الدرج ، حتى بلغنا الحجرات العلوية . وكان بين الحين والآخر يفتح بابا وينظر بداخل الحجرات التى كنا نجتازها ، وأخيرا رفع لوحا متداعيا من الخشب ، تصر مفصلاته صريرا قبيحا ، وقال :

ــ هاك حجرة تصلح لتناول عشائك فيها ! .. وسوف تجدين كيسا من القمح فى الركن ، وهو كيس نظيف تماما .. ولكن إذا كنت تخشين اتلاف ثوبك الحريرى العظيم فانشرى منديلك فوقه وأجلسى عليه !

« وكانت تلك (الحجرة) اشبه بجحر مصنوع من الخشب، تفوح منه رائحة الحنطة والشعير القوية ، وقد كدست حول جدرانه زكائب هذه الغلال تاركة فراغا فسيحا فى وسطه .. فالتفت إليه ، وواجهته غاضبة ، وأنا أصيح به : « ما هذا يا رجل ؟ ليس هذا بالمكان الذى يصلح للنوم .. اننى أريد ان أرى حجرة نومى ! »

« فعاد يقول فى لهجته الساخرة : « حجرة النوم ؟.. لقد رأيت كل ما لدينا من حجرات النوم .. إلا حجرتى » .. ثم أشار إلى « الوكر » المجاور الذى لم يكن يختلف عن الأول إلا فى خلو جدرانه من الزكائب نوعا ما ، وفى احتوائه على فراش عريض منخفض ، خال من الستائر ، على أحد طرفيه لحاف مصبوغ بالنيلة !

فقلت أجيبه : « وما حاجتى إلى غرفتك ؟.. أحسب أن مستر هيثكليف لا يقيم فوق سطح المنزل ، اليس كذلك ؟ » .. فصاح كأنما وقع على كشف جديد : « آه !.. أهى حجرة مستر هيثكليف التى تريدين ؟.. اما كان بوسعك أن تقولى ذلك من أول وهلة ، حتى كنت اخبرك ــ بدلا من كل هذا الوقت الضائع ــ إنها الحجرة التى لن تستطيعى رؤيتها

بالذات ، لأنه يوصدها دائما ولا يسمح لمخلوق بأن يدخلها غيره ! »

« فلم اتمالك نفسى من القول : « ان لكم منزلا جميلا يا جوزيف ، يضم عشرة لطيفة سارة !.. وما أظن إلا أن الخلاصة المركزة لشر أنواع الجنون فى العالم قد اتخذت لها مستقرا فى عقلى يوم أن ربطت مصيرى بمصائرهم وقدرى بأقدارهم !.. ولكن مهما يكن من أمر فان ذلك ليس موضع البحث الآن .. ان هناك حجرات أخرى ، فأناشدك الله وأستحلفك بحق السماء أن تسرع فترشدنى إلى مكان أقر فيه قليلا ، أينما يكن هذا المكان ! » .

« ولم يجبنى بكلمة على هذا التوسل ، بل اخذ يهبط الدرجات الخشبية للسلم فى ضيق وتبرم حتى وقف أمام حجرة ادركت من وقفته ، ومن أثاثها الممتاز ، انها خير حجرات المنزل . كانت بها سجادة !.. سجادة جيدة ، غير أن نقوشها ورسومها كانت مطموسة تحت اكداس الغبار الملبدة . وكانت بها مدفأة لصق على الجدار فوقها ورق ملون ممزق يتدلى قطعا وشرائح غير منتظمة .. وفراش عريض فاخر من خشب البلوط تحوطه ستائر فضفاضة قرمزية اللون من قماش ثمين وطراز حديث ، وإن كان من الواضح أنها عانت الكثير من سوء الاستعمال ، إذ كانت أطرافها العليا غير مشدودة ، بل تتدلى فى دوائر وقد نزعت من حلقاتها ، على حين كان القضيب الحديدى الذى يحملها ينحنى كالقوس على أحد

جانبى الفراش وقد تدلت الستائر منه تجرجر أذيالها على الأرض .. حتى المقاعد كانت تالفة ، وأكثرها مهشم تماما ! .. وكانت ثمة فجوات غائرة عميقة تشوه ألواح الخشب الثمين التى تكسو الجدران ، وتدل على ارتطام أجسام صلبة حادة بها ..

« وكنت أحاول أن أستجمع عزيمتى للدخول إلى هذه الحجرة والاستيلاء عليها ، عندما أعلن مرشدى الأحمق أن « ها هنا حجرة السيد » .. وكنت وقتئذ قد برد طعامى ، وفترت شهيتى ونفد صبرى ، فأخذت ألح عليه فى أن يدلنى على مكان ألجأ إليه وأجد فيه وسائل الراحة .. فبدأ الشيخ المتدين يقول : « وأين بحق الشيطان ؟.. ليرحمنا الله !.. ليغفر لنا الله !.. أين تريدين أن تتسكعى بحق الجحيم ؟! أنت أيتها العروس المتعبة !.. لقد رأيت كل شىء إلا حجرة هيرتون الصغيرة .. ولا يوجد فى المنزل بعد ذلك جحر صغير آخر تأوين إليه ! »

« وكان الغضب والضيق قد نالا منى ، فطوحت بالصحفة ومحتوياتها من يدى إلى الأرض ، وجلست فوق قمة الدرج ، واخفيت وجهى بين يدى ، وانخرطت فى البكاء .. بينما كان جوزيف يصيح :

ـ أخ .. أخ .. مرحى .. مرحى !.. انك قد أحسنت صنعا !.. سوف يتعثر السيد الآن فى هذه الأوعية المحطمة ، وسوف نسمع منه الكثير . سوف نسمع منه ما ينبغى

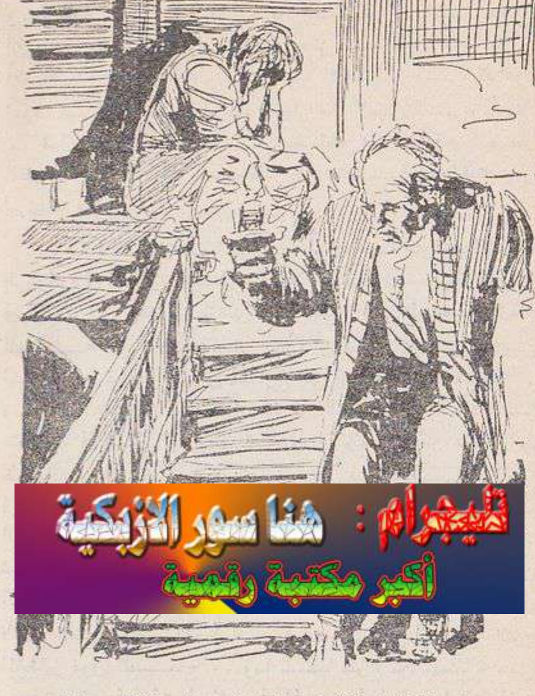
وما لا ينبغى .. أنت أيتها الحمقاء الطائشة !.. انك تستحقين أن ينحل جسمك ويهزل من الآن حتى عيد الميلاد لإلقائك نعم الله الثمينة تحت الأقدام فى غضبك الأحمق . ولكنى لا أكون أعرف شيئا إن استطعت أنت إظهار هذا الخلق السيىء طويلا! .. فهل تظنين أن هيثكليف سيسكت على هذه الفعال الطيبة ؟!.. ألا ليته يضبطك الآن متلبسة !.. ليته يأتى ليرى ما فعلت !

« وهكذا ظل منطلقا فى تأنيبه لى ، بينما كان يهبط الدرج إلى وكره فى الطابق الأسفل ، حاملا الشمعة معه ، وتاركا إياى فى الظلام !.. وقد اضطرتنى فترة التفكير التى تلت هذه الفعلة الطائشة إلى الاقتناع بأننى يجب أن أطامن من كبريائى وأن أكبح جماح غضبى ، وأن أسارع إلى إزالة آثار ما فعلت .. وما كدت أهم بالعمل ، حتى بعث لى القدر بمساعد غير متوقع ، فى شكل « ثروتلر » الذى عرفت فيه عندئذ ابن كلبنا القديم « سكالكر » ، وكان قد قضى فترة (الحضانة !..) فى « الجرانج » قبل أن يهديه أبى إلى مستر هندلى . وأغلب الظن أنه عرفنى ، فقد مسح أنفه بأنفى على سبيل التحية ، ثم أسرع إلى التهام الثريد مساعدة لى على تنظيف المكان من آثار تسرعى وطيشى .. بينما كنت أتنقل من درجة إلى أخرى لأجمع قطع الفخار المحطمة ، وأمسح بمنديلى رشاش اللبن المتطاير فوق السياج .. وما كدنا نفرغ من مهمتنا ، حتى سمعت وقع خطوات ايرنشو فى الممر ، فأرخى مساعدى ذنبه وحشره بين فخذيه ، ثم التصق بالجدار خائفا ، على حين

أسرعت أسترق الخطى إلى أقــرب باب إلى فاختفيت بداخله .. وقد فشلت محاولة الكلب تجنبه ، كمــا أدركت ذلك من الجلبة الناشئة عن عدوه السريع ، ومن عوائه الطويل الأليم .. ولكنى كنت أسعد حظا ، فقد مر بالحجــرة التى اختفيت فيها مر الكرام ، ومضى إلى حجرته ثم أوصد بابها وراءه .. وفى اللحظة التالية كان جوزيف يصعد مع هيرتون ليضعه فى فراشه .. وكانت الحجرة التى اتخذتها ملجأ لى هى حجــرة هيرتون ، فلما رآنى الشيخ الفانى قال :

ــ ها قد وجدت حجرة لك ولكبريائك فى المنزل ، كما أرى . انها خالية ، ويمكن أن تتسع لكما معا ، وحاشا لله أن يكون ثالثكما فى مثل هذه الصحبة الشريرة !

« وتلقفت هذا الإيعاز بسرور بالغ ، وما كدت ألقى بنفسى فوق أحد المقاعد بجوار النار ، حتى هومت ، ثم استغرقت فى النوم .. وكان نومى هادئا عميقا ، وإن لم أستمتع به طويلا ، فقد أيقظنى مستر هيثكليف ــ وكان قد رجع لتوه من الخارج ــ ليسألنى ، بلهجته الرقيقة الحبيبة ، عما أفعله فى هــذا المكان . فأخبرته بسبب بقائى إلى هــذه الساعة المتأخرة ، وهو أنه كان يحتفظ بمفتاح حجرتنا فى جيبه ! وكان لاستعمالى لضمير الجمع أثر رهيب ، كأننى ارتكبت إثما مميتا .. فقــد راح يسب ويقســم أن الحجــرة ليست حجرتى ، ولن تكون حجرتى يوما ما ، وأنه سوف .. ولكنى لن أعيد على مسامعك ألفاظه ، ولن أصف لك مسلكه المعتــاد معى .. فهو شــديد البراعة والدهاء ، ولا يقر له قرار فى استثارة حقدى وكراهيتى



« وهكذا ظل منطلقــا فى تأنيبه لى ، بينمــا كان يهبط الدرج الى وكره فى الطابق الأسفل ، حامــلا الشمعة معــه .. »

.. وانى لتأخذنى الدهشة ويستولى على الذهول كلما فكرت فى أمره ، فتكون دهشتى من العمق بحيث تطغى على خوفى منه .. ولكنى أؤكد لك أن نمرا مفترسا أو أفعوانا ساما لا يمكن أن يثير فى نفسى ما يثيره هو من الرعب والفزع . وقد انبانى بمرض كاترين ، واتهم أخى بأنه السبب فيه ، وانذرنى باننى سوف أنوب عن ادجار فى مقاساة الألم والعذاب .. حتى يستطيع أن يضع يده عليه !

« اننى أكرهه ، أكرهه .. يا لى من تعسة شقية !.. وكم كنت حمقاء طائشة ، ولكن حذار ان تلفظى بكلمة من ذلك لأحد فى (الجرانج) .. وسوف اتوقع حضورك يوما بعد يوم .. وكل ما أرجوه الا تتخلى عنى وتخيبى أملى ..

« ايزابيلا »

الفصل الرابع عشر

ما إن فرغت من تلاوة تلك الرسالة ، حتى ذهبت إلى السيد فاخبرته بأن أخته قد وصلت إلى (المرتفعات) وانها أرسلت لى خطابا تعرب فيه عن أساها لما أصاب مسز لينتون ، وعن رغبتها الحارة فى رؤيته ، ورجائها فى أن يرسل إليها معى ، فى اقرب وقت مستطاع ، ما يدل على صفحه عنها !

فقال لينتون : « صفحى عنها ؟.. ليس لدى ما أصفح عنها من أجله يا ايلين .. ويمكنك أن تذهبى إلى (مرتفعات ويذرنج) بعد ظهر اليوم ، إذا شئت ، وأن تقولى لها اننى لست غاضبا منها ، إنما أنا آسف من أجلها ، حزين لأنى فقدتها .. سيما وأننى لا أستطيع أن أعتقد البتة بانها سوف تكون سعيدة . ومهما يكن من أمر ، فان ذهابى لرؤيتها لا يمكن أن يكون موضع تفكير ، فان فراقنا أبدى .. أما إذا رغبت حقا فى أن تسدى إلى جميلا ، فدعيها تقنع الوغد الذى تزوجت منه بأن يترك البلاد ! »

فسألته متوسلة : « وهلا بعثت إليها برقعة صغيرة يا سيدى ؟ »

ـ كلا ، فلا حاجة بنا إلى ذلك .. وإن اتصالى بعائلة هيثكليف أمر لا يمكن تحقيقه ، كاتصاله بعائلتى ، ولن يكون له وجود قط ..

وقد أحزننى برود مستر ادجار كثيرا ، ورحت اكد ذهنى ، على طول الطريق من (الجرانج) ، بحثا عن الوسيلة التى

اخفف بها من وقع كلماته ، عندما أرددها على مسامعها !.. وكيف أهون من رفضه كتابة بضع كلمات يسرى بها عن ايزابيلا . وأحسب أنها كانت تترقب حضورى منذ الصباح ، إذ رأيتها تنظر من خلال سجاف النافذة ، بينما كنت اجتاز الطريق المؤدية إلى الحديقة ، فلما أومأت إليها برأسى محيية ، رأيتها تتراجع عن النافذة ، كأنما تخشى أن يراها أحد ! ودخلت البيت دون أن أطرق الباب ، فما رأيت فى حياتى منظرا أبشع ولا أفظع من المنظر الذى يبدو فيه منزلنا القديم المرح !.. ولكن لا بد لى من الاعتراف بأننى لو كنت فى مكان السيدة الشابة لقمت ، على الأقل ، بكنس الأرض حول الموقد ، ولمسحت الموائد بقطعة من القماش .. ولكنها كانت قد تشبعت بروح الإهمال التى تسود كل من يحيط بها . وكان محياها الجميل شاحبا مصفرا ، يبدو عليه الضعف وقلة الاكتراث ، وشعرها مشعثا غير مرجل ، وقد تدلت بعض غدائره فى غير نظام ، بينما عقص باقيها حول رأسها فى إهمال . أما هندامها فيكفى أننى رجحت أنها لم تلمس ثوبها منذ مساء اليوم السابق !.. ولم يكن هندلى هناك ، أما مستر هيثكليف فكان جالسا إلى منضدة ، يقلب بعض الأوراق فى مفكرته ، ولكنه بادر إلى النهوض عند ظهورى ، وسألنى عن حالى ، فى كثير من الود ، ثم قدم لى مقعدا . وكان هيثكليف الشىء الوحيد الذى يبدو فى هذا المكان نظيفا محترما ، حتى لقد خطر لى أن مظهره لم يكن يوما خيرا مما هو الآن !.. ولقد بلغ من عظم ما فعلته الأحداث من تبديل

مركزيهما ، أنه كان يبدو فى نظر الغريب الذى لا يعرف منشأه ، كأنما ولد وربى فى وسط النبلاء والأشراف ، على حين أن زوجته كانت تبدو كأنها امرأة صغيرة نشأت وسط الأقذار والإهمال وسوء التربية !

وتقدمت ايزابيلا لتحيتى فى لهفة وقلق ، ومدت إلى إحدى يديها لتتلقى الخطاب المنتظر ، فهززت رأسى .. ولكنها لم تفهم تلميحى ، وتبعتنى إلى خزانة ثياب كنت أهم بأن أضع فيها قبعتى ، وهى تتوسل إلى فى همس بأن أعطيها للتو ما أحضرته معى .. وقد حدس هيثكليف معنى مناوراتها ، فقال :

ـ إذا كان معك شىء لايزابيلا ، ولا بد أن يكون معك شىء لها يا نللى ، فأعطيه لها ، ولا حاجة بك إلى اعتباره سرا ، فلا أسرار بيننا ..

ورأيت من الأفضل أن أذكر الحقيقة من فورى ، فأجبت : « آه !.. ليس معى شىء البتة . وقد طلب إلى سيدى أن أخبر شقيقته بأنها لا ينبغى أن تتوقع منه زيارة أو خطابا فى الوقت الحاضر .. وهو يبعث إليك ، يا سيدتى ، بحبه وتمنياته لك بالسعادة ، وصفحه عما سببت من أحزان ، ولكنه يرى أنه ينبغى بعد الآن قطع كل صلة بين أهل منزله وأهل هذه الدار ، تلك الصلة التى لا يرجى من قيامها أمل قط !

فارتجفت شفتا مسز هيثكليف رجفة طفيفة ، وعادت إلى مقعدها بجوار النافذة ، أما زوجها فقد وقف بجوار الموقد ،

قريبا منى ، وبدأ يلقى على الأسئلة عن حالة كاثرين ، فأخبرته بما وجدت من الأليق ان اقوله عن أسباب مرضها ، ولكنه أمطرنى بوابل من الأسئلة المتلاحقة حتى انتزع منى الحقائق المتعلقة بمنشأ هذا المرض . وقد وجهت إليها اللوم الذى تستحقه ، لأنها هى التى جلبت ذلك كله إلى نفسها ، ثم ختمت حديثى بالأمل فى أن يحذو حذو مستر لينتون ، ويتجنب اى تدخل فى شئون عائلته فى المستقبل ، سواء أكان للخير أم للشر .. قلت له :

ـ لقد بدأت مسز لينتون الآن تتماثل للشفاء ، ولكنها لن تعود إلى حالتها الأولى قط ، بعد أن نجت من الموت بمعجزة . وإذا كنت حقا تحترمها وترجو لها الخير ، فعليك أن تتجنب اعتراض طريقها مرة اخرى . بل انه ليجدر بك أن ترحل عن البلاد نهائيا ، وهو امر لن تأسف عليه قط ، فان كاثرين لينتون الآن تختلف عن صديقتك القديمة كاثرين ايرنشو ، اختلاف عن هذه السيدة الشابة !.. لقد تغير مظهرها تغيرا كبيرا ، وكذلك خلقها وطباعها . والرجل الذى يجد نفسه مضطرا إلى عشرتها، بحكم الضرورة ، لا يقيم أود عاطفته ، من الآن فصاعدا ، إلا على ذكرى ما كانت عليه يوما من الأيام ، وبدافع من الإنسانية والشعور بالواجب !

فاصطنع هيثكليف الهدوء ، وعقب على كلامى قائلا :

ـ من الجائز أن يكون الأمر كذلك . من الجائز حقا الا يجد سيدك شيئا يتعلق به سوى إنسانيته وشعوره

بالواجب ، ولكن تتصورين اننى أدع كاثرين لإنسانيته وواجبه ؟.. انك قبل أن تغادرى هذا المنزل يجب أن تعدينى بتهيئة لقاء بينى وبينها . واعلمى أنه سواء رضيت أنت لم أبيت ، فاننى سوف أراها حتما .. فماذا تقولين ؟

ـ أقول يا مستر هيثكليف إنه لا ينبغى لك أن تطلب إلى ذلك ، ولن تنال شيئا منه عن طريقى قط ، فان لقاء آخر بينك وبين السيد سوف يقتلها حتما !

فاستطرد يقول دون أن يبالى باعتراضى :

ـ ربما أمكن تجنب ذلك بمساعدتك . أما إذا نشأ أى خطر من وراء مثل هذا اللقاء ، أى إذا كان سيدك سببا فى تعكير صفوها مرة أخرى ، فأحسبنى اكون على حق لو مضيت معه إلى أبعد الحدود . واننى ، يا نللى ، أرجو أن تكونى صادقة معى فتخبرينى هل تتالم كاثرين كثيرا إذا فقدته ؟.. فان الخوف من إيلامها هو الذى يغل يدى عن المساس به .. وهكذا ترين الفرق بين شعورى وشعوره : فلو كان فى مكانى ، وكنت فى مكانه ـ برغم اننى أمقته مقتا أحال حياتى إلى مرارة متصلة ! ـ لما رفعت عليه يدا . ربما كنت لا تصدقين ما أقول ، كما هو ظاهر فى محياك ، ولكن ثقى اننى ما كنت لأحرمه من صحبتها طالما كانت راغبة فيها ! .. أما فى اللحظةالتى تكف فيها عن التعلق به ، فانى أمزق قلبه تمزيقا ، وأنهل من دمه حتى أرتوى !.. ولكن إلى أن يحدث ذلك ـ (وإذا لم تصدقينى فانك لا تعرفيننى حقا) ـ إلى أن

يحدث ذلك فانى أفضل أن أموت موتا بطيئا قبل أن أمس شعرة واحدة من رأسه !

فقاطعته قائلة : « ومع ذلك فانك لا تتورع عن تحطيم كل أمل فى شفائها التام ، بإقحام نفسك على ذاكرتها الآن ، بعد أن أوشكت على أن تنساك ، وإقحامها هى فى دوامة جديدة من المتاعب والمنازعات ! »

ـ وهل تزعمين انها أوشكت على نسيانى ؟ .. أواه يا نللى ! .. انك تعلمين أن ذلك غير صحيح ، وانها لم تنسنى قط . وانت تعلمين ـ كما أعلم ـ انها إذا فكرت فى لينتون مرة ، تفكر فى الف مرة ! .. ولقد ظننت شيئا من هذا القبيل فى فترة من أشقى أيام حياتى ، وكان هذا الظن لا يفتأ يراودنى عندما عدت إلى هذه الأنحاء فى الصيف الماضى . ولكن ما من شىء يجعلنى أتقبل هذه الفكرة الفظيعة مرة أخرى ، إلا أن أسمعها تؤكدها لى بنفسها . وعندئذ لن يكون لينتون شيئا فى ناظرى ، ولا هندلى ، ولا أى حلم من تلك الأحلام التى طالما اشتهيتها .. عندئذ سوف ينطوى مستقبلى كله تحت كلمتين : الموت ، والجحيم .. فسوف يصبح وجودى كله جحيما إذا فقدتها ! .. ومع ذلك فقد كنت غرا أبله عندما تصورت لحظة أنها تقدر تعلق ادجار بها أكثر مما تقدر تعلقى أنا بها .. وإذا كان يحبها بكل ما فى كيانه الضئيل من قوة ، فلن يحبها فى مدى ثمانين عاما كحبى لها يوما واحدا ! وأن لكاثرين قلبا عميقا كقلبى ، والأيسر أن تجمعى مياه البحر فى معلف الجواد هذا ، من أن يستأثر ادجار بعاطفتها كلها !

هراء ! .. إنه لا يكاد يسمو درجة فى الاعزاز لديها عن كلبها أو جوادها ! .. إنه لا ينطوى على شىء يجعله محبوبا ، مثلى ، فكيف تستطيع أن تحب فيه شيئا ليس من خصائصه ؟

فصاحت ايزابيلا فى اندفاع مفاجىء :

ـ إن كاثرين وادجار يتبادلان الحب كأى اثنين من الناس . وليس من حق أحد أن يتحدث عنهما على هذا النحو . كما أننى لا أستطيع السكوت على سماع أخى يبخس قدره إلى هذا الحد !

فأجابها هيثكليف فى ازدراء :

إن أخاك مولع بك أشد الولع أيضا ، أليس كذلك ؟ .. ومع ذلك فإنه يتنكر لك ويتركك تهيمين على وجهك فى الدنيا تحت رحمة الأقدار ، فى سهولة عجيبة !

ـ إنه لا يدرى شيئا عما أقاسيه من آلام ، لأننى لم أخبره بذلك ..

ـ إذن فقد أخبرته بشىء آخر .. لقد كتبت إليه ، أليس كذلك ؟

ـ لقد كتبت إليه لأخبره بزواجى ، وقد رأيت خطابى بنفسك ..

ـ ولم تكتبى شيئا آخر منذ ذلك الحين ؟

ـ كلا ..

فتدخلت قائلة : « ان سيدتى الشابة تبدو حزينة وفى حالة سيئة بسبب تغير حالتها . والظاهر أن حب « بعض

الناس » قد تضاءل كثيرا بالنسبة إليها . وربما كان فى وسعى أن أحدس من هم هؤلاء الناس ، ولكنى لن أسميهم ! »

فقال هيثكليف : « أحسب أن الذى تضاءل هو حبها هى ، فقد فسد خلقها حتى غدت مجرد امرأة مهملة مشاكسة . بل لقد تعبت سريعا من محاولة إدخال السرور على ، على نحو غير مألوف . وقد يصعب عليك تصديق ما أقول ، ولكنها فى صبيحة يوم عرسنا نفسه كانت تبكى وتريد العودة الى منزلها ! .. ولكنى سوف أريها كيف توطن نفسها على العيش فى هذا المنزل ، والرضى بما قسم لها فيه ، وسوف أعمل بوسائلى الخاصة على منعها من إلحاق العار بى بتجوالها خارجه ! » .

فأجبته قائلة : « حسنا يا سيدى . أرجو أن تدخل فى اعتبارك أن مسز هيثكليف اعتادت أن تجد من يعنى بها ويقوم بخدمتها ، وأنها نشأت وربيت كابنة وحيدة مدللة يسارع الجميع إلى خدمتها . لذلك ينبغى أن تحضر لها وصيفة ترعاها وتعمل على تنظيف المنزل وترتيبه . كما ينبغى أن تحسن معاملتها وأن تكون بها رفيقا ، فمهما كان رأيك فى مستر ادجار ، فإنك لا تستطيع أن تشك فى قدرتها على العواطف القوية ، وإلا لما تركت الراحة والرفاهية والأصدقاء فى منزلها القديم وأتت راضية لتعيش معك فى برية موحشة كهذا المنزل ! » .

ـ لقد هجرت ذلك كله تحت تأثير الأوهام التى صورتنى فى عينيها كبطل من أبطال القصص والروايات الغرامية ،

متوقعة أن تجد من إخلاصى ووفائى وشهامتى ما يشبع رغباتها إلى درجة غير محدودة . وإن إصرارها الأحمق على اعتناق فكرة خيالية عن خلقى ، وتصرفها الأخرق على أساس تلك الأحاسيس التى كانت تنميها وتغذيها فى نفسها ، ليجعلنى أنظر إليها كمخلوق ليست به ذرة من العقل . ولكنى أحسبها قد بدأت تعرفنى على حقيقتى أخيرا ! .. فلم أعد أرى منها تلك البسمات البلهاء ، ولا تلك الحركات السخيفة التى تشكل بها وجهها ، والتى كانت تثيرنى بها فى بادىء الأمر . كما لم أعد ألمح عليها ذلك العجز الأخرق عن تمييز ما إذا كنت جادا أم هازلا عندما كنت أبدى لها رأيى فيها وفى افتتانها بى ! .. ولقد كان جهدا باهرا من الفطنة وبعد النظر أن تكتشف أننى ما أحببتها قط ! .. فقد كنت أعتقد ، يوما من الأيام ، أن أية دروس تتلقاها على يدى لا يمكن أن تكفى لكى تعى ذلك وتفهمه . ومع ذلك فيبدو أنها قد وعته إلى حد ما ، إذ أعلنت لى هذا الصباح ـ كما لو كانت قد وقفت على اكتشاف مروع ـ أننى قد نجحت فعلا فى إثارة كراهيتها لى ! .. وهذا لعمرى عمل جبار يحتاج إلى قوة خارقة كقوة هرقل ! .. ولو أمكن اتمامه لاستحق منى الشكر والحمد ! .. فهل بوسعى أن أثق فى بتأكيدك هذا يا ايزابيلا ؟ أنت واثقة حقا من أنك تكرهيننى ؟ وهل لو تركتك وحدك يوما أو بعض يوم ، لا تعودين إلى ضارعة باكية ؟.. وأحسب أنها كانت تود لو تظاهرت بالحنان والرقة أمامك يا نللى ، فإن كشف الحقيقة عارية مجردة لما يجرح كبرياءها وغرورها ، ولكنى لا أبالى لو عرف الناس جميعا أن

الحب كان من جانبها وحدها ، وأننى ما كذبت عليها أو
تظاهرت بحبها قط . وليس فى وسعها أن تتهمنى بأننى
أظهرت لها رفقا ولينا كاذبين خداعين ، فإن أول شىء رأته
منى عندما غادرت (الجرانج) هو أننى شنقت كلبها الصغير ،
ولما توسلت إلى أن أبقى عليه ، كانت أولى كلماتى التى نطقت
بها أننى أعربت عن رغبتى فى شنق كل من يمت إليها بصلة ،
إلا شخصا واحدا ! .. ولعلها اعتبرت هذا الاستثناء منصبا
عليها هى ! .. ولكن قسوتى ووحشيتى لم تثر الاشمئزاز
فى نفسها ، وأحسب أن فى أعماقها إعجابا فطريا بها طالما ظل
شخصها الغالى بمنأى عن الأذى ! .. والآن ، ألا ترين أن
هذه الكلبة الذليلة الحمقاء قد بلغت أعلى ذرى السخف ،
وأروع آيات الغباء عندما راودها ذلك الحلم الأخرق بأننى
يمكن أن أحبها ؟ .. أخبرى سيدك ، يا نللى ، بأننى لم
ألق قط فى حياتى بأسرها ، شيئا حقيرا خسيسا مثلها ..
بل إنها لتشين اسم لينتون . لقد كنت أخفف من قسوتى
أحيانا ـ لأن التفنن كان يعوزنى فى استنباط وسائل تعذيبها ـ
فكنت أتراخى فى اختبار أقصى ما يبلغه احتمالها ، ومع ذلك
كانت تزحف على ركبتيها فى خضوع وتذلل . ولكن أخبرته
أيضا أن يريح قلبه الأخوى وسلطته القضائية ، فإننى ألتزم
حدود القانون بدقة بالغة ، متجنبا حتى هذه اللحظة كل
ما يعطيها الحق فى طلب التفرقة بيننا . والأكثر من ذلك أنها
لن تشكر أحدا على إبعادها عنى ، ولكنها إذا رغبت فى
الذهاب ، فعلى رسلها ! .. فإن المضايقات التى يثيرها
محضرها النكد ، تطغى على المتعة المشتقة من تعذيبها ..

فقلت له : « هذا يا مستر هيثكليف كلام رجل مجنون ،
وأغلب الظن أن زوجتك قد اقتنعت بجنونك ، ولهذا السبب
احتملت عشرتك حتى الآن ! أما وقد قلت الآن إن لها الخيار
فى الذهاب ، فلا شك فى أنها سوف تفيد من هذا التصريح ..
وأحسب يا سيدتى أنك لست مفتونة مسلوبة اللب بحيث
تبقين معه بملء اختيارك ، أليس كذلك ؟ » .

فانبعثت ايزابيلا تقول ، وقد تطاير من عينيها شرر الحقد
والغيظ ، حتى لم يعد لدى أى شك ، عند رؤيتهما وفهم
التعبير الذى ارتسم فيهما ، فى النجاح التام الذى كللت به
محاولات زوجها ليجعلها تمقته :

ـ حذار يا ايلين ! لا تصدقى كلمة واحدة مما يقول .. إنه
شيطان كذوب ، بل وحش تجرد من صفات البشر ! .. لقد
أخبرنى مرة قبل الآن أن بوسعى أن أتركه ، فأقدمت على
المحاولة ، ولكنى لا أجرؤ الآن على إعادتها مرة أخرى ! ..
فقط عدينى يا ايلين ألا تذكرى كلمة من حديثه الشائن لأخى أو
لكاثرين .. فمهما أدعى أمامك ، فإنه إنما يسعى لإثارة
اليأس والقنوط فى نفس ادجار ، ويقول إنه تزوج منى حتى
تكون له السيطرة عليه .. ولكنه لن ينال هذه السيطرة ،
فسوف أموت قبل أن يحقق أمنيته هذه ! .. وشد ما أرجو ،
وأدعو الله ، أن ينسى حذره الشيطانى مرة ، فيقتلنى .. فإن
المتعة الوحيدة التى أتصورها ، هى أن أموت ، أو أراه ميتا !

فقال هيثكليف : « صه ! .. كفى هذا الهراء الآن . وعليك
يا نللى أن تذكرى كلماتها هذه إذا ما دعيت للشهادة فى المحكمة

.. ثم تأملى هذه السحنة المقلوبة ! لقد قاربت الدرجة التى تعجبنى وتوافقنى ! .. كلا يا ايزابيلا ، انك لا تصلحين الآن لحماية نفسك ، ولا تؤمنين عليها . ولما كنت حاميك الشرعى ، فلابد لى من حجزك تحت حراستى ، مهما كان هـذا الالتزام بغيضا منفرا . والآن ، اصعدى إلى الطابق العلوى ، فإن لدى شيئا أريد أن أقوله لايلين دين سرا . كلا ، ليس هـذا هو الطريق ، إنما قلت لك اصعدى ! .. لماذا ؟ تعالى أريك طريق الصعود يا طفلتى العزيزة ! » .

ثم أمسك بها ، وراح يجرها حتى طوح بها خارج الحجرة ، وعاد ليغمغم قائلا : « إننى خلو من الشفقة ، مجرد من الرحمة ! .. وكلما ازدادت الديدان تلويا وتوجعا ، ازداد حنينى إلى سحقها وإخراج أحشائها ! .. أرأيت الطفل عندما تنبت أسنانه ، وكيف يتلهف على العض والمضغ ؟ .. ان بى لهفة معنوية مماثلة ! .. ولكن طحنى وتحريق أسنانى يزدادان قوة وحمية ، بنسبة ازدياد الألم بالفريسة ! » .

فقلت وقد أخذت قبعتى من المشجب : « وهل تفهم لكلمة الشفقة معنى ؟ .. بل هل شعرت قط فى حياتك بلمسة منها فى قلبك ؟ » .

فقاطعنى قائلا ، وهو يرى عزمى على الرحيل : « ضعى هذه جانبا ، فلم يحن وقت انصرافك بعد . والآن اسمعى يا ايلين : إننى لا بد لى من أن اقتنعك ، أو ارغمك ، على مساعدتى فى تحقيق ما عقدت عليه العزم من مقابلة كاثرين ، بغير إهمال أو توان . وأقسم لك إننى لا أضمر شرا أو ضرا ،

وليس بى من رغبة فى إثارة المشاكل ، أو إغضاب مستر لينتون أو إهانته .. فكل ما أريده هو أن أسمع من فم كاثرين كيف تجد نفسها الآن ، ولماذا تعرضت لهذا المرض الشديد ، وأن أسألها إن كان بوسعى أن أؤدى لها خدمة أو أكون ذا نفع لها على أية صورة . لقد قضيت فى حديقة (الجرانج) ليلة الأمس ست ساعات متوالية ، وسوف أعود إليها الليلة أيضا . بل اننى لن أكف عن ارتياد المكان كل ليلة ، وكل يوم ، حتى أجد فرصة لدخوله . ولو التقى بى ادجار لينتون ، فلن أتردد فى أن أصرعه ، وأكيل له من الضربات ما يكفى لبقائه بلا حراك مدة بقائى معها ! .. أما إذا تعرض لى خدمه ، فسوف أرغمهم على مغادرة المنزل مهددا إياهم بهذا المسدس . ولكن ألا ترين من الأفضل أن نمنع أسباب احتكاكى بهم أو بسيدهم ؟ .. ان فى وسعك أن تفعلى ذلك فى يسر . سوف أنذرك بحضورى ، وعندئذ يمكن لك أن تهيئى لى سبيل الدخول ، دون أن يحس بى أحد ، بمجرد أن تجديها بمفردها ، ثم ترقبين المكان حتى أبرحه . وثقى أن ضميرك سيرتاح إلى ذلك تماما ، لأنك فى الواقع إنما تحولين دون وقوع أضرار كثيرة ! » .

فاعترضت على أدائى دور الخائنة فى منزل مخدومى ، فضلا عن أننى بذلك إنما استحث قسوته وأنانيته على تدمير هدوء مسز لينتون وراحتها ، مرضاة له وإشباعا لرغباته .. ثم أردفت قائلة :

ـ إن أى حادث عادى يحدث [illegible] اضطرابا أليما ، فقد

أصبحت أعصابها كلها شديدة التوتر ، ولا يمكنها أن تحتمل المفاجاة . إننى واثقة من ذلك ، فلا تزدد إلحاحا وإصرارا يا سيدى ، وإلا اضطررت لإخبار سيدى بتدبيراتك ، وسوف يتخذ الإجراءات الكفيلة بحماية منزله وساكنيه من مثل هذا التطفل غير المرغوب فيه !

فصاح هيثكليف : « فى هذه الحالة سوف أتخذ أنا الإجراءات الكفيلة بسجنك هنا يا امرأة ! .. فلن تغادرى (مرتفعات ويذرنج) حتى صباح الغد . وإنها لخرافة سخيفة أن تزعمى أن كاثرين لا يمكن أن تحتمل رؤيتى . أما مفاجأتى لها ، فهذا أمر لا أوده ، وعليك أن تعديها للقائى ، وتسأليها الإذن لى بالدخول .. ثم انك تقولين إنها لا تذكر اسمى قط ، وأن أحدا لا يذكره أمامها .. فلمن تريدين أن تذكر اسمى ما دام الحديث عنى يعد محرما فى منزلها ؟ .. إنها تظنكم جميعا جواسيس زوجها عليها . أجل ، لست أشك أنكم حولها كزبانية الجحيم ! .. وانى أحس فى صمتها ، كأى شىء آخر من أحوالها الآن ، مبلغ ما تعانيه هناك وتشعر به . وأنت تقولين إنها غالبا ما تبدو قلقة لا تستقر على حال من اللهفة والتوجس ، فهل يعد ذلك دليلا على الهدوء الذى لا تريدين منى أن أعكر صفوه ؟ .. وقد تكلمت عن عقلها المضطرب ، فكيف يمكن أن تكون غير ذلك ، بحق الشيطان ، وهى تقاسى هذه العزلة المروعة ؟ .. ثم ذلك المخلوق التافه الحقير الذى يرعاها بدافع من الواجب والإنسانية .. من الشفقة والإحسان ! .. ان بوسعه أن يغرس شجرة بلوط فى أصيص

زرع صغير ، ويتوقع منها أن تنمو وتترعرع ، إذا تصور أنه يستطيع أن يرد إليها قواها وصحتها فى تربة رعايته التافهة الضحلة . والآن ، دعينا ننتهى من الأمر حالا ، فهل تفضلين البقاء هنا ، وتتركينني أشق طريقى إلى كاثرين فوق جثث لينتون وخدمه ؟ .. أم تكونين صديقتى ، كما كنت دائما حتى الآن ، فتفعلين ماارجوتك أن تؤديه لى ؟ .. ولكن عليك أن تختارى أحد الطريقين على الفور ، لأننى لا أرى سببا يدفعنى إلى التردد والتباطؤ دقيقة أخرى إذا كنت تصرين على التشبث بعنادك وسوء خلقك ! » .

حسنا .. لقد ظللت أجادله وأتوسل إليه طويلا ، يا مستر لوكوود ، ورفضت رفضا قاطعا كل ما طلبه منى أكثر من خمسين مرة ! .. ولكنه أرغمنى أخيرا ، بعد جدال طويل ، على اتفاق بيننا ، فتعهدت له بأن أحمل خطابا منه إلى سيدتى ، ووعدته ــ فى حالة موافقتها ــ بأن أبلغه بغياب سيدى عن المنزل ، فى أول مرة يغيب عنه فيها ، والموعد الذى يستطيع فيه الحضور ودخول البيت كيفما شاء .. ولكنى لن أكون هناك ، كما أن زملائى الخدم سيخلون الطريق بالمثل . فهل كان ما فعلته خطأ أم صوابا ؟ .. أغلب الظن أنه كان تصرفا خاطئا ، وإن كان من ناحية أخرى نافعا مثمرا ، فقد ظننت أننى بامتثالى لرغباته انما أحول دون انفجار الموقف من جديد . كما ظننت أن ذلك اللقاء قد يحدث رد فعل طيب فى مرض كاثرين العقلى . ولكنى عدت فتذكرت انتهار مستر ادجار الصارم لى وتحذيره إياى من نقل القصص والأحاديث .

ورحت أحاول التهوين من شأن المخاوف التى تنازعتنى من جراء هذا الأمر ، بأن أخذت أؤكد لنفسى ، مرة بعد مرة ، أن هذه الخيانة لثقة سيدى ــ إذا كان مسلكى يستحق هذه التسمية القاسية ــ ينبغى حتما أن تكون الأخيرة . وكانت رحلة العودة إلى الدار اشد كآبة وحزنا من رحلة الذهاب ، وانتابتنى الهواجس من كل ناحية قبل ان اقنع نفسى ، أو ارغمها ، على وضع الرسالة بين يدى مسز لينتون .

« ولكن ها هو ذا كينيث قد حضر ، وسأنزل إليه لأخبره بتقدمك الحثيث فى طريق الشفاء . أما قصتى « المملة » ، فلنرجئها الآن ، وسوف تصلح لقطع الوقت فى صباح يوم آخر »

وبينما كانت المرأة الطيبة تنزل لاستقبال الطبيب ، كنت اقول لنفسى : اجل ، إنها قصة مملة ، وكئيبة موحشة فى الوقت نفسه ، وليست من النوع الذى كنت خليقا باختياره لتسليتى . ولكن لا بأس ، فلسوف استخرج اطيب العقاقير من أعشاب « مسز دين » المريرة !.. ولكن على ــ قبل كل شىء ــ أن احذر ذلك السحر الذى يكمن فى عينى كاترين هيثكليف البراقتين .. فسوف أجد نفسى فى ورطة عجيبة لو سلمت قلبى لهذه الشابة الحسناء ، ثم تبين أن الابنة ليست إلا صورة طبق الأصل من أمها !

* * *

الفصل الخامس عشر

مضى اسبوع آخر .. وازدادت بى الأيام اقترابا من الصحة الكاملة ، والربيع البسام . وقد فرغت من سماع قصة جارى كاملة ، فى جلسات مختلفة كانت مدبرة المنزل تختلسها بين مشاغلها العديدة الأخرى . وسوف أمضى فى سردها ، مستخدما كلماتها ذاتها ، مع قليل من التركيز ، فانها فى الواقع قصاصة بارعة ، ولا احسبنى قادرا على تحسين اسلوبها .. قالت :

« فى ذلك المساء ، مساء زيارتى « للمرتفعات » ، كنت احس بوجود مستر هيثكليف قريبا من المنزل ، كما لو كنت أراه بعينى ، فتجنبت الخروج من الدار ، لأننى كنت ما أزال احمل خطابه فى جيبى ، وكنت راغبة عن سماع المزيد من الوعيد أو التأنيب . كنت قد قررت ألا أسلم الخطاب حتى يغادر السيد المنزل إلى أى مكان ، لأنه لم يكن فى وسعى أن أحدس كيف يكون أثره على كاترين . وكانت النتيجة انه لم يصل إليها إلا بعد انقضاء ثلاثة أيام كاملة . وكان الرابع يوم الأحد ، فأحضرت الخطاب إلى حجرتها بعد أن ذهبت العائلة كلها إلى الكنيسة ، ولم يبق فى الدار ــ عداى ــ إلا رجل من الخدم ترك ليساعدنى فى الأعمال المنزلية . وكنا عادة نعمد إلى اغلاق الابواب خلال ساعات القداس ، ولكنى يومئذ انتهزت فرصة دفء الجو وروعته ، فتركتها مفتوحة جميعا ، كما أننى ــ وفاء بوعدى ، إذ كنت أعرف تماما من الذى سوف يقدم إلينا ــ

قلت لرفيقى إن السيدة تشتهى البرتقال ، وأن عليه أن يسرع إلى القرية عدوا ليحضر بعضا منه ، على أن ندفع ثمنه فى اليوم التالى . وما أن غادر البيت حتى صعدت إلى الطابق العلوى .

« كانت مسز لينتون تجلس فى فجوة النافذة كالمعتاد ، وترتدى ثوبا فضفاضا أبيض اللون ، وتغطى كتفيها بشملة خفيفة . وكان شعرها الغزير الطويل قد عقص مرفوعا فوق رأسها فى بداية مرضها ، أما الآن فكان ممشطا فى بساطة ، وتنسدل خصلاته فى تموجه الطبيعى فوق صدغيها وعنقها . وكان مظهرها قد تبدل تماما ـ كما أنبأت هيثكليف ـ ولكنها عندما تكون هادئة فان هذا التبدل تبدو فيه مسحة من جمال ملائكى لا عهد لدنيا البشر بمثله !.. وكان البريق المتألق فى عينيها قد خبا ، وبدت مكانه عذوبة حالمة حزينة . ولكن هاتين العينين لا توحيان بأنهما تنظران إلى الأشياء المحيطة بها ، وإنما تبدوان دائما وكأنهما تتطلعان إلى ما وراءها ، تتطلعان إلى بعيد وراء كل شىء ، حتى ليحق لك أن تقول انهما تتطلعان إلى ما وراء هذا العالم كله !.. أما شحوب وجهها ـ الذى اختفى هزاله ومنظره الهضيم منذ أن اكتسى بشىء من اللحم ـ والتعبير الغريب المرتسم فى محياها من أثر حالتها العقلية ـ فانهما وإن كانا ينمان ، على نحو أليم ، عن الأسباب التى أدت إليهما ، فقد كانا يزيدان من الشعور بالأسى الذى يثيره مرآها فى النفوس . أما أنا فكنت أجد فيهما ـ وأحسب أن أى شخص ينظر إليها كان يجد ذلك مثلى ـ ما ينقض أية أدلة ظاهرية أخرى على نقاهتها وقرب شفائها ، وإنما يسمها بطابع الشخص الذى قضى عليه بالفناء !

« وكان على النافذة بجوارها كتاب مفتوح تحرك النسمات الهادئة أوراقه بين آن وآخر . وفى يقينى أن لينتون هو الذى وضعه هناك ، إذ أنها لم تكن تحاول قط أن تسلى نفسها بالقراءة ، أو تشغل نفسها بأى عمل آخر . وكم من ساعة كان يقضيها محاولا أن يثير انتباهها إلى شىء مما كان موضع تسليتها فى الماضى . وكانت تعى ما يرمى إليه ، فاذا كانت فى حالة طيبة ، فانها تحتمل محاولاته فى هدوء واستكانة ، مكتفية بإظهار عدم جدواها بما ينبعث منها بين وقت وآخر من تنهد الضجر والسأم ، حتى تنتهى أخيرا إلى إيقاف مساعيه بابتسامة حزينة ، أو قبلة خائرة . أما فى الحالات الأخرى ، فإنها تتحول عنه فى نفور وعناد ، وتخفى وجهها بين راحتيها ، أو تدفعه عنها فى حنق وغضب .. فكان عندئذ يحرص على أن يتركها وحدها ، مدركا عن يقين انه قد أخطأه الصواب فى مسعاه .

« وكانت أجراس كنيسة (جيمرتون) لا تزال تدق من بعيد ، كما كان الخرير الهادىء لقنوات الوادى يصافح الأذن وديعا رقيقا ، فكان بديلا جميلا لذلك الحفيف الذى لم يحن موعده بعد ، حفيف أوراق الشجر فى الصيف ، والذى كان يطغى على موسيقى القنوات عند ما تورق الأشجار حول (الجرانج) .. وكان خرير الماء يسمع دائما فى (مرتفعات ويذرنج) كلما سكن الهواء إثر انهمار المطر طويلا ، أو جريان الثلوج الذائبة فوق التلال . وكانت كاثرين تفكر فى (مرتفعات ويذرنج) ، وهى تصغى إلى ذلك الخرير الموسيقى ـ إن كانت تفكر فى شىء أو تصغى إلى شىء على الاطلاق ـ ولكن كانت فى عينيها

تلك النظرة الجوفاء الغامضة التى وصفتها من قبل ، والتى لم تكن تعبر عن إدراك لشىء من الأشياء المادية سواء عن طريق السمع أم البصر ..

« ووضعت الخطاب فى رفق فى يدها المستقرة على ركبتها ، وقلت :

ــ هذا خطاب لك يا مسز لينتون .. وينبغى أن تقرئيه على الفور ، لأنه يتطلب ردا .. هل افض أختامه ؟

« فلم تغير اتجاه نظراتها ، وقالت فى اقتضاب : « نعم .. » .

« وفتحت الخطاب ، وكان موجز العبارة ، ثم استطردت قائلة : « اقرئيه الآن ! » .

« غير أنها جذبت يدها بعيدا ، فسقط الخطاب على الأرض .. فالتقطته ثانية ووضعته فى حجرها ، ووقفت أنتظر حتى يروق لها أن تنظر إليه ، لكن ترقبى لهذه الحركة طال على غير جدوى ، حتى اضطررت إلى متابعة كلامى قائلة : « هل تريدين أن اقرأه عليك يا سيدتى ؟.. إنه من مستر هيثكليف ! » .

« فأجفلت ، ولاحت فى عينيها بارقة من عودة الذاكرة ، وتراءت فى محياها دلائل النضال فى سبيل تنظيم أفكارها . ثم رفعت الخطاب ، وبدا عليها أنها تتصفحه فى إمعان ، حتى إذا ما بلغت الإمضاء ، تأوهت فى مرارة . ومع ذلك فقد وجدت أنها لم تدرك دلالته تماما ، لأننى عندما رغبت إليها فى أن تسمعنى جوابها ، اكتفت بأن أشارت إلى الاسم ، وراحت تتفرس فى وجهى فى لهفة حزينة متسائلة .. فحدست حاجتها

إلى من يشرح لها الأمر ، وقلت : « حسنا .. إنه يود أن يراك .. وهو الآن فى الحديقة ، يتلهف على معرفة الإجابة التى أحملها إليه .. » .

« وكنت قد لاحظت أثناء كلامى أن كلبا ضخما ــ كان يقبع تحتنا فى الحديقة مستلقيا فى استرخاء فى أشعة الشمس الساطعة فوق العشب الأخضر ــ قد نصب أذنيه فجأة ، وبدا يهم بالنباح ، ولكنه ما لبث أن أرخاهما وهو يعلن ، بهزات ذيله ، عن مقدم شخص لا يعده غريبا عن المكان .. ومالت مسز لينتون إلى الأمام ، وهى ترهف السمع ، وقد حبست أنفاسها . وفى اللحظة التالية سمعت وقع أقدام تعبر الردهة . كان المنزل المفتوح من قوة الاغراء لهيثكليف بدخوله ، بحيث لم يستطع مقاومته .. وأغلب الظن انه حسبنى قد نكثت بعهدى له ، فصمم على الاعتماد على جرأته ! .. وكانت كائرين متعلقة الأنظار بباب حجرتها ، فى لهفة واشتياق شديدين . غير أن القادم لم يصب الحجرة الصحيحة فى بادىء الأمر ، فأشارت إلى ان أستقبله ، ولكنه اهتدى إليها قبل أن أبلغ الباب . وفى خطوات وثابة ، كان يقف إلى جانبها ، ويضمها إلى صدره فى قوة !

« ولقد لبث أكثر من خمس دقائق لا ينطق بكلمة ، ولا يرخى ذراعيه عن احتضانها ، وقد راح فى خلالها يمطرها بعدد من القبلات أحسب أنه لم يمنح أحدا أكثر منه فى حياته قط من قبل !.. ولكنى أشهد أن سيدتى هى التى قبلته أولا . ورأيت فى جلاء أنه لم يستطع احتمال النظر إليها ، لفرط الله

الصارخ . كان قد أدرك ــ كما أدركت أنا ــ منذ أن وقعت انظاره عليها ، انه لم يكن ثمة أمل فى شفائها ، وأنه قد قضى عليها بالموت ، لا شك فى ذلك ولا ريب !

« وكان أول ما نطق به ، هو أن راح يهتف فى لوعة دون أن يحاول إخفاء يأسه وأساه : « أواه ياكاثى ! .. أواه يا حبيبتى! .. كيف أستطيع احتمال ذلك ؟ » .. وكان عندئذ يحدق النظر إليها فى إمعان شديد ، بحيث ظننت أن تركيز نظراته سوف يجلب البكاء إلى عينيه .. ولكنهما كانتا تتقدان بالعذاب والألم ، وقد تحجرتا فلا تنديان بالدموع .. فأسندت كاثرين كتفيها إلى ظهر المقعد ، وراحت تبادله نظرته وقد قطبت حاجبيها . كان مزاجها أشبه بدوارة الريح ، لأهوائها الدائمة التقلب والتغير .. وما لبثت أن قالت :

ــ وماذا الآن ؟ .. لقد حطمتما قلبى ، أنت وادجار ، يا هيثكليف ! .. ثم تأتيان كلاكما تتباكيان وتتنعيان على ما فعلتماه بى ، كأنكما انتما اللذان تستحقان الإشفاق والرثاء .. ولكنى لن أشفق عليك أو أرثى لك ! لست أنا التى تفعل ذلك . لقد قتلتنى ، وأحسبك افلحت فى ذلك . يا لله ! ما أقواك ! .. ترى كم من السنين تنوى أن تعيشها بعد أن أرحل ؟

« وكان هيثكليف يركع على إحدى ركبتيه بجوارها ليستطيع احتضانها ، فحاول النهوض ، ولكنها أمسكت بشعره وتشبثت به لتبقيه فى مكانه ، ثم استطردت تقول فى مرارة : « شد ما أود أن أظل ممسكة بك حتى نموت معا ! .. ولن



وفى خطوات وثابة ، كان يقف الى جانبها ، ويضمها الى صدره فى قوة ! ..

أبالى بما تعانيه من ألم .. بل لست أبالى شيئا بآلامك جميعا.
ولماذا بربك لا تتعذب ولا تتألم ؟ .. لقد تعذبت أنا وذقت ألوان
الألم .. ثم هل تراك تنسانى ؟ .. هل ستكون سعيدا عندما
أكون تحت أطباق الثرى ؟ هل تراك تقول بعد عشرين عاما :
« هذا قبر كاثرين ايرنشو . لقد أحببتها منذ عهد بعيد ،
وشقيت بفقدها ، ولكن ذلك قد مضى وانقضى .. فقد أحببت
الكثيرات منذ ذلك الحين ، وأطفالى الآن أحب إلى نفسى مما
كانت هى فى يوم من الأيام . وعندما تحين ساعتى ، فلن يسرنى
انى ذاهب إليها ، بل سوف يسوؤنى أن أضطر إلى تركهم ! »
.. هل هذا ما ستقوله يا هيثكليف ؟ » .

« فانتزع رأسه من قبضتها فى عنف ، وكانت أسنانه
تصطك وهو يصيح : « بربك لا تعذبينى حتى يصيبنى الجنون
كما أصابك ! » .

« كان الاثنان ، فى نظر المشاهد العادى ، يمثلان صورة غريبة
مخيفة .. وكان يخلق بكاثرين أن تقدر أن السماء سوف تكون
منفى رهيبا لها ، ما لم تطرح عنها ـ مع جسدها الفانى ـ
نفسيتها المعنوية أيضا .. فقد كانت أساريرها الآن تحمل
طابعا من الحقد والضغينة فى وجنتيها الشاحبتين ، وشفتيها
الباهتتين ، وعينيها اللتين تتقدان بشرر الانتقام ! .. وكانت
تطبق أصابعها على خصلة من غدائره التى كانت تمسك بها .
أما رفيقها فقد اتكأ ، عند نهوضه ، على إحدى يديه ، وأمسك
بذراعها الأخرى ، فلما رفع يده عنها أدركت أن حصيلته من
الرقة التى تستلزمها حالتها كانت من القلة بحيث كان على

بشرتها الشاحبة أربعة خطوط زرقاء عميقة ! .. واستطرد
يقول فى وحشية :

ـ هل تملكك شيطان حتى تخاطبينى على هذا النحو وأنت
مشرفة على الموت ؟ .. وهل قدرت أن كلماتك جميعا سوف
تظل مطبوعة فى ذاكرتى ، ولا تفتأ تحفر فيها وتزداد عمقا بعد
أن تكونى قد تركتنى ؟ .. إنك لتعلمين مدى كذبك عندما
تقولين إننى قتلتك . وإنك لتعلمين ، ياكاثرين ، اننى أستطيع
أن أنساك إذا ما استطعت أن أنسى كيانى ووجودى .. أفلا
يكفى أنانيتك الجهنمية أنك بينما تنعمين بالراحة والسكينة ،
سوف أتلوى أنا فى عذاب الجحيم ؟

« فأجابت كاثرين فى أنين أليم : « ولكنى لن أنعم بالراحة
أو السكينة » .. وعادت إلى الشعور بضعفها البدنى عندما
أخذ قلبها يخفق فى عنف ، وفى ضربات غير منتظمة كانت ترى
وتسمع من بعد ، من جراء الانفعال الشديد الذى استبد بها
.. فكفت عن الكلام ريثما انقضت تلك الأزمة ، ثم استطردت
تقول فى رقة :

ـ إننى لا أتمنى لك عذابا أشد مما أقاسيه يا هيثكليف .
كل ما أتمناه هو ألا نفترق قط . ولو ضايقتك وأكربتك كلمة
من كلماتى فيما بعد ، فاعلم أننى أحس هذا الكرب نفسه فى
قبرى .. فاصفح عنى ، من أجل خاطرى ! .. تعال هنا
واركع بجانبى ثانية . إنك لم تسىء إلى فى حياتك قط . وإذا
أمعنت فى غضبك على ، فإن ذلك سوف يكون أسوأ ذكرى لك،
بما يفوق ذكرى كلماتى العنيفة . هلا أتيت إلى جانبى ؟ ..
تعال .. تعال !

« فعاد هيثكليف ثانية ، ولكنه وقف خلف مقعدها ، وانحنى فوق ظهر المقعد قليلا ، إلى الحد الذى لا يمكنها معه أن ترى وجهه المتقع من التأثر والانفعال .. وأدارت رأسها إلى الوراء لتنظر إليه ، ولكنه لم يكن ليسمح لها بذلك .. فقد تحول بغتة ، وسار نحو المدفأة ، حيث وقف صامتا وقد أدار ظهره نحونا .. وتبعته نظرات مسز لينتون فى ترقب وارتياب .. وكانت كل لحظة تمر توقظ فيها أحاسيس جديدة .. فلما طال الصمت ، واستطالت نظراتها ، استطردت تخاطبنى فى نبرات مليئة بمرارة الخيبة :

ـ آه ! .. أرأيت يا نللى كيف أنه لا يريد أن يرق لى لحظة ليحول بينى وبين القبر ! .. هذا هو مبلغ حبه لى ! .. حسنا .. لا بأس .. إن هذا ليس هيثكليف الذى أعرفه ! .. ولكنى سوف أظل أحب هيثكليف الذى أعرفه ، وسوف آخذه معى فإنه قطعة من روحى !

« ثم أضافت كأنما تفكر بصوت مسموع :

ـ ثم إن أشد ما يضايقنى الآن هو هذا السجن المحطم ـ جسدى ـ الذى أعيش فيه . لقد تعبت من طول احتباسى هنا .. وأود بصبر نافد أن أفر إلى ذلك العالم المجيد ، وأن أظل هناك أبدا ، فلا أقتصر على النظر إليه من وراء غلالة من الدموع ، والحنين إليه من خلال جدران قلب مضنى ، وإنما أبقى فيه وأعيش معه حقا ! .. ولعلك يا نللى تخالين أنك أفضل منى وأسعد حظا ، لأنك فى عنفوان قوتك وكامل صحتك! ولعلك تأسفين من أجلى وترثين لحالى ! .. ولكن كل شىء

سوف يتبدل عما قريب .. وسوف أكون أنا التى أرثى لحالك .. سوف أكون بعيدة عنكم أشرف عليكم جميعا من عل ..

واستطردت تحدث نفسها :

ـ كم أعجب من تباعده ، وإحجامه عن الاقتراب منى ! .. أنا التى حسبته يرغب فى ذلك ويتمناه ! .. هيثكليف ، يا عزيزى .. ما ينبغى لك أن تكون غاضبا عبوسا الآن .. تعال إلى يا هيثكليف !

وفى غمرة لهفتها وشوقها نهضت واقفة ، وهى تستند إلى ذراع مقعدها .. وإزاء هذه الدعوة الحارة ، استدار نحوها وقد لاحت فى أساريره أمارات اليأس المرير . وكانت عيناه الواسعتان تنديان بالدموع ، وتحدجانها بنظرات وحشية ، وصدره يعلو ويهبط فى رجفات متتابعة .. ولبثا لحظة وقد جمد كل منهما فى مكانه .. ولم أر كيف التقيا بعد ذلك ، ولكن كاثرين وثبت إلى الأمام ، فتلقاها بين ذراعيه ، والتقيا فى عناق طويل ظننت أن سيدتى لن تخلص منه على قيد الحياة قط .. والواقع أنها بدت فى عينى كأنما فقدت الشعور .. وألقى هو بنفسه على أقرب مقعد إليه ، وهو يحملها بين يديه ، فلما اقتربت فى عجلة لأتبين إن كانت مغشيا عليها ، كشر عن أنيابه فى وجهى ، وانبثق الزبد من فيه كالكلب المسعور ، وراح يضمها إلى صدره فى غيرة بشعة .. ولم أعد أشعر بأننى فى رفقة مخلوق من البشر مثلى ، وكان من الواضح أنه لن يفهمنى مهما خاطبته وقلت له .. وهكذا انتحيت جانبا وأمسكت لسانى ولذت بالصمت فى حيرة شديدة

وما لبثت ان سكن جأشى قليلا عندما رايت كاثرين تبدر منها حركة صغيرة .. فقد رفعت يدها لتجذب إليها عنقه ، وتلصق خدها بخده وهو يحتضنها .. بينما راح بدوره يمطرها بقبلات جنونية ، وهو يقول فى ضراوة :

ـ لقد علمتنى الآن كيف كنت قاسية ياكاثى .. قاسية ومنافقة ! .. فلماذا احتقرتنى ؟ لماذا خدعت قلبك وغدرت به ؟ .. إنك لن تسمعى منى كلمة واحدة تسرى عنك ، فإنك تستحقين ذلك .. انت التى قتلت نفسك .. أجل .. لك أن تقبلينى ، وأن تذرفى ما شئت من الدموع .. ولك ان تنتزعى منى القبلات والعبرات .. فإنها سوف تلفحك بنارها .. وسوف تلعنك بكل قطرة فيها ! .. لقد كنت تحبيننى .. فبأى حق ، إذن ، هجرتنى ؟ .. بأى حق تخليت عنى من أجل وهم تافه شعرت به نحو لينتون ؟ .. فلا الشقاء أو الهوان أو الموت ، ولا اى شىء مما يمكن أن يصيبنا به الله أو الشيطان ، كانت لتستطيع أن تفرق بيننا .. ولكنك فعلت ما تعجز عنه كل هذه القوى ، وفعلته بملء إرادتك .. إننى لم احطم قلبك . انت التى حطمته بيدك .. وعندما حطمته ، حطمت قلبى معه ! .. إنك تريننى قويا متين الأسر ، ولكن ذلك لتعس حظى .. فهل تظنيننى أتمنى الحياة طويلا ؟ .. وأى نوع من العيش ذلك الذى يمكن ان احياه ، بينما انت .. آه ! يا الهى ! .. اتراك انت تتمنين العيش بينما روحك فى قبر من القبور ؟

فشرقت كاثرين بدموعها ، وبأنينها ، وقالت :

ـ دعنى وحدى .. دعنى وحدى .. إذا كنت قد اخطأت ، فهأنذا أكفر عن خطئى بالموت . وهذا فوق ما يكفيك ! .. لقد هجرتنى ، أنت أيضا .. ولكنى لن اعاتبك أو اعنف عليك .. إننى أصفح عنك .. فاصفح عنى !

ـ ما أصعب الصفح وأنا انظر إلى هاتين العينين، وأتحسس هاتين اليدين الناحلتين ! .. قبلينى ثانية ، ولكن لا تدعينى أرى عينيك ! .. لقد غفرت لك كل ما فعلته بى .. فاننى أحب قاتلى ! .. ولكن قاتلك أنت ! .. كيف يمكننى أن أحبه ؟

وساد الصمت بينهما ، واختفى وجه كل منهما فى وجه الآخر ، وغسلت دموع كل منهما وجه صاحبه .. وأغلب الظن أن البكاء كان متبادلا بينهما .. فإن هيثكليف كان خليقا بأن يبكى فى مناسبة عظيمة كهذه ..

وبدأ القلق يتسرب إلى نفسى ، كلما مضى الوقت .. فقد كان النهار يمر سراعا ، كما عاد الرجل الذى كنت قد بعثت به إلى القرية ، من مهمته ، وبدأت أميز من بعد ، فى أشعة الشمس ناحية الغرب فوق الوادى ، جماعات من الناس تتكاثر وتتكاثف عند باب كنيسة (جيمرتون) ، فقلت :

ـ لقد انتهى القداس ، وسوف يكون سيدى هنا بعد نصف ساعة ..

فزمجر هيثكليف باللعنات والسباب ، وشدد من عناقه لكاثرين ، ولكنها لم تتحرك قط .. ولم تمض هنيهة ، حتى رايت جمعا من الخدم يجتازون الطريق نحو الجناح الذى يقع فيه المطبخ .. ولم يكن مستر لينتون يبعد عنهم كثيرا

وهو يسير خلفهم .. وفتح بنفسه البوابة الكبيرة ، وأخذ يسير فى بطء واسترخاء قادما نحو المنزل .. ولعله كان يستمتع بهواء العصر الجميل الذى كان يترقرق كنسمات الصيف ..

عندئذ هتفت قائلة :

ـ ها هو ذا قد حضر .. فأسرع بالانصراف بحق السماء .. إنك لن تجد أحدا على الدرج الأمامى .. فأسرع بالخروج ، واختف برهة بين الأشجار ريثما يدخل المنزل ، حتى لا يراك ..

فقال هيثكليف وهو يحاول الخلاص من بين ذراعى رفيقته :

ـ لا بد لى من الذهاب الآن يا كاثى .. ولكن إذا قدر لى أن أعيش فسوف أراك ثانية قبل أن يحين موعد نومك .. لن أذهب إلى أبعد من خمس ياردات عن نافذة حجرتك ..

فتشبثت به بقدر ما سمحت لها قواها الخائرة ، وهى تجيبه :

ـ كلا .. لا ينبغى أن تذهب .. ولن تذهب ..

فتوسل إليها فى قلق :

ـ ساعة واحدة فقط !

ـ ولا دقيقة واحدة !

فازداد الدخيل القلق إلحاحا ، وقال :

ـ بل لا بد لى من الذهاب .. سوف يأتى لينتون إلى هنا حالا ..

ولقد كان بوسعه أن ينهض ، وبذلك يتخلص من قبضة أصابعها ، ولكنها ازدادت به تعلقا وازدادت أصابعها به تشبثا، وقد لاح فى أساريرها عزم رهيب جنونى ، ثم صرخت قائلة :

ـ كلا .. لا تذهب .. لا تذهب ! .. إنها المرة الأخيرة .. ولن يقتلنا ادجار .. هيثكليف .. إننى سوف أموت .. سوف أموت ..

فصاح هيثكليف ، وهو يغوص فى مقعده :

ـ يا لك من حمقاء ! .. ها هوذا .. صه يا حبيبتى ، اسكتى ياكاثرين ! .. سوف أبقى .. وإذا أطلق على الرصاص وأنا جالس فى مكانى ، للفظت انفاسى الأخيرة ، وشفتاى تباركانه !

وعادا إلى عناقهما من جديد .. وسمعت وقع خطوات سيدى فوق الدرج ، فتصبب العرق البارد من جبينى ، واستبد بى الفزع ، وقلت لهيثكليف ضارعة :

ـ هل تنوى أن تصغى إلى هذيانها ؟ .. إنها لا تعرف ما تقول .. فهل تدمرها وتقضى عليها ، لأنها لم يعد لديها من العقل ما تحمى به نفسها ؟ .. انهض .. فما زالت فى الوقت فسحة لخلاصك .. إن هذا شر عمل شيطانى ارتكبته فى حياتك قط .. لقد قضى علينا جميعا .. السيد ، والسيدة ، والخادمة !

وكنت أعصر يدى ، وانشج بالبكاء .. وسمع مستر لينتون تلك الضجة ، فأسرع الخطى .. وفى غمرة اضطرابى وانفعالى، سررت إذ رأيت ذراعى كاثرين تتهاويان مسترخيتين بجانبها ، ورأسها يميل إلى الأمام .. فقلت لنفسى :

ـ لقد أغمى عليها ، أو ماتت ! .. وذلك أفضل كثيرا .. ولكن الأفضل منه أن تكون قد ماتت ، حتى لا تبقى طويلا عبئا على من يحيطون بها ، مجلبة للشقاء إليهم .

وانقض ادجار على ضيفه المتطفل ، وقد امتقع وجهه دهشة وغضبا .. ولست أدرى ما الذى كان ينرى أن يفعله .. فقد وضع الآخر حدا لكل ما كان يمكن حدوثه ، بأن وضع بين يديه ذلك الجسد الساجى الذى يبدو خلوا من الحياة ، قائلا :

ـ انظر إليها .. وإذا لم تكن شيطانا أو عدوا لدودا ، فأسعفها أولا ، ثم قل لى بعد ذلك كل ما تشاء ..

وأسرع يغادر المكان ، ويجلس فى حجرة الجلوس .. ودعانى مستر لينتون ، فرحنا نبذل الجهود المضنية ، ونلجأ إلى شتى الوسائل ، لنعيدها إلى الصواب ، حتى نجحنا فى إقامتها أخيرا .. ولكنها كانت ذاهلة اللب .. كانت تئن وتتأوه ، ولكنها لم تعرف أحدا .. ونسى ادجار ، فى غمرة قلقه عليها ، صديقها البغيض .. أما أنا فلم أنس .. فانتهزت أول فرصة سنحت لى ، ومضيت إليه فرجوته أن ينصرف ، مؤكدة له أن كاثرين أحسن حالا ، وأنه سوف يسمع منى فى الصباح كيف قضت ليلتها .. فقال :

ـ إننى لن أمتنع عن مغادرة الدار .. ولكنى سوف أبقى فى الحديقة .. وأرجوك يا نللى أن تبرى بوعدك غدا .. وسوف تجديننى تحت أشجار الحور .. فإذا لم تفعلى فسوف أقوم بزيارة أخرى سواء أكان لينتون هنا أم لم يكن !

والقى نظرة سريعة نحو باب الحجرة المنفرج ، وإذ استوثق من أن ما ذكرته له كان يبدو صحيحا ، غادر المنزل فى خطوات سريعة ، وأخلاه من محضره المنكود ..

الفصل السادس عشر

حوالى منتصف تلك الليلة ولدت كاثرين التى رأيتها فى (مرتفعات ويذرنج) .. ولدت هزيلة ضامرة فى الشهر السابع من حملها .. وبعد مولدها بساعتين ، لفظت الأم أنفاسها الأخيرة ! .. ماتت دون أن تسترد من الوعى ما يكفى لأن تفتقد هيثكليف ، أو تشعر بوجود ادجار .. وكان حزن هذا الأخير لما أصابه من الثكل ، أمرا يجل عن الوصف ، وتألم النفس للحديث عنه .. كما أظهرت آثاره بعد ذلك مدى عمقه فى نفسه . وفى رأيى أن ما زاد من فداحة المصاب لديه ، أنه ترك بغير عقب من الذكور . وكان قلبى يعتصر حسرة وألما لذلك ، وأنا أتأمل اليتيمة الضعيفة ، فرحت أنحى باللائمة ـ فى نفسى ـ على لينتون العجوز الذى أوصى بأن تنتقل أملاكه ، إذا عرضت مثل هذه الحالة ، إلى ابنته بدلا من حفيدته .. وهكذا جاءت الطفلة المسكينة ، فلم تلق من أحد ترحيبا ، ولم يهش لمولدها إنسان .. فلو أنها ماتت فى تلك الساعات الأولى لها فى الوجود ، لما اكترث لذلك أحد قط . وقد عوضنا هذا الإهمال فيما بعد ، ولكن المنكودة استهلت وجودها بغير صديق ، مثلما يخشى أن تختتمه !

وتسلل ضوء الصباح ـ الذى كان مشرقا بهيجا خارج الدار ـ من ثنايا مصاريع نوافذ الحجرة الصامتة ، فأضفى على الفراش وشاغلته وهجا رقيقا لينا ، وكان ادجار لينتون

يضع رأسه على الوسادة ، مطبق العينين ، ومحياه الناصع البياض يبدو ــ فى شحوب الموت الذى يعلوه ــ أشبه بالوجه الساجى إلى جواره ، وقد تماثلا سكونا وجمودا .. ولكن أساريره كانت تنطق فى جمودها بالألم المضنى ، على حين كان وجه الراحلة يفيض سلاما ودعة . كان جبينها ناعما وضاء ، وأجفانها مطبقة ، وشفتاها تنفرجان فى ابتسامة هادئة .. وما أحسب أن أيا من ملائكة السماء كان يمكن أن يبدو أوفر منها جمالا .. ونالنى قبس من ذلك السكون المطلق الذى يحيط بها فى رقادها ، فما أحسست قط بأن عقلى عاش فى إطار أشد قداسة مما كان عليه عندما رحت أتأمل تلك الصورة الصافية من الراحة الالهية ! .. ورحت أرجع فى نفسى ، عن غير قصد ، صدى الكلمات التى نطقت بها منذ ساعات قلائل، قلت : « إنها بعيدة عنا تشرف علينا جميعا من عل .. وسواء أكانت لا تزال على الأرض ، أم أنها الآن فى السماء ، فإن روحها قد رجعت إلى مستقرها ومثواها عند خالقها » .

ولست أعرف إن كانت تلك صفة اختصصت بها ، ولكن الواقع أننى قلما أحس شيئا غير السعادة عندما أقوم وحدى بالحراسة فى حجرة يرفرف عليها الموت ، ما لم يقاسمنى هذا الواجب شخص خرج به الحزن عن صوابه أو ملىء قلبه يأسا .. فإنى أرى راحة وطمأنينة لا تستطيع الأرض ولا الجحيم أن تحطمهما ، وأحس باليقين فى عالم يأتى بعد ذلك ، لا نهاية له ولا ظلمات فيه .. تلك الأبدية التى يلجون أبوابها ، حيث لا تتقيد الحياة بحدود فى مدتها ومداها ، ولا الحب فى حنانه

وروعته ، ولا السرور فى عنفوانه ووفرته .. وقد تبينت فى تلك المناسبة مبلغ الأثرة والأنانية فى حب مثل حب مستر لينتون ، عندما يحزن على خلاص كاثرين السعيد !!.. ومن المحقق أن المرء قد يشك أحيانا ، بعد تلك الحياة المليئة بالعناد والمشاكسة والتهور التى كانت تحياها ، فيما إذا كانت تستحق أن تقاد أخيرا إلى مرفأ السلام والطمأنينة .. إن المرء قد يشك فى ذلك فى سويعات التفكير الهادىء المجرد عن العاطفة، لا فى ذلك الوقت ، أمام جثمانها .. فان السكينة التى كانت ترين على ذلك الجثمان المسيحى ، بدت كأنما تضمن سكينة مماثلة للروح التى كانت تسكنه !

« ترى هل تعتقد يا سيدى أن مثل هؤلاء الناس يلقون السعادة فى العالم الآخر ؟.. إننى أبذل الكثير فى سبيل معرفة ذلك .. »

ولكنى تنكبت الإجابة على سؤال مسز دين ، الذى أدهشنى وقتئذ كشىء أدنى إلى الضلالة .. فاستطردت تقول :

« إننا لو اقتفينا سبيل كاثرين لينتون ، لما حق لنا أن نظنها سعيدة .. ولكننا سوف ندعها لخالقها .. كان السيد يبدو نائما ، فجازفت بمغادرة الحجرة بعد شروق الشمس مباشرة، وتسللت إلى حيث الهواء النقى المنعش خارج الدار .. وحسبنى الخدم قد خرجت لأنفض عنى النعاس بعد حراستى الطويلة ، ولكنى فى الحقيقة إنما خرجت لأرى مستر هيثكليف .. فلو أنه مكث بين أشجار الحور الليل بطوله ، لما سمع شيئا من الجلبة التى قامت فى (الجرانج) .. اللهم الا إذا كان قد

ووجدته هناك ، على قيد خطوات من البستان ، مستندا الى شجرة عتيقة عارى الراس ، ملبد الشعر بالندى

سمع وقع حوافر جواد الرسول الذى بعثنا به إلى (جيمرتون) .. ولو أنه اقترب من الدار ، لأدرك من الأضواء المتنقلة هنا وهناك ، والأبواب الخارجية وهى تفتح وتغلق ، أن الأمر لم يكن على ما يرام فى الداخل . وكنت أود أن أجده ، ومع ذلك كنت أخشى هذا اللقاء .. كنت أحس بشناعة الأنباء التى يجب ان انقلها إليه ، وتمنيت أن ينتهى ذلك الموقف سريعا ، ولكنى لم أكن أعرف كيف اقولها له ! .. ووجدته هناك ، على قيد خطوات من البستان ، مستندا إلى شجرة عتيقة ، عارى الرأس ، ملبد الشعر بالندى الذى تجمع على الغصون المورقة حديثا ، والذى كانت قطراته تتساقط حوله .. وكان قد قضى فترة طويلة فى وقفته هذه ، لأننى رأيت طائرين يذهبان ويعودان ، وليس بينهما وبينه إلا زهاء ثلاثة أقدام ، وقد انهمكا فى بناء عشهما ، ولا يريان فى قربه منهما إلا ما يريان فى كتلة من الخشب ، على حين انفلتا هاربين عند اقترابى ..

ورفع عينيه نحوى ، وقال :

ــ لقد ماتت ! .. ولم أكن بحاجة إلى انتظارك لأعرف ذلك .. ضعى منديلك هذا جانبا ، ولا تدعى دموعك ومخاطك يسيلان أمامى ! .. لعنة الله عليكم جميعا .. إنها ليست فى حاجة إلى شىء من دموعكم !

كنت أبكى رثاء لحاله بمثل ما كنت أبكى عليها .. فاننا أحيانا نشفق على مخلوقات تجردت من مثل هذا الشعور سواء بالنسبة للناس أو لأنفسها .. وعندما وقعت انظارى على وجهه للمرة الأولى ادركت انه علم بالكارثة .. وطرأت لى فكرة

سخيفة ، هى أن قلبه قد غشيته السكينة فراح يصلى ، إذ كانت شفتاه تتحركان فى تمتمة صامتة ، وقد أحنى رأسه كأنما ركعت أنظاره على الأرض .. فقلت وقد كتمت شهقاتى وجفت عبراتى :

ـ أجل .. لقد ماتت .. وأرجو أن تكون قد ذهبت إلى السماء ، حيث يمكن أن نلحق بها ، كل واحد منا ، لو أصغينا إلى صوت النذير ، وتركنا سبل الشر لنسلك سبل الخير ..

فسألنى هيثكليف فيما يشبه السخرية :

ـ وهل أصغت هى إذن إلى صوت النذير ؟ .. هل ماتت أشبه بقديسه ؟.. هيا .. قصى على كل ما حدث ، فى صدق ودقة .. كيف لقيت ..

كان يهم بأن ينطق باسمها ، ولكنه لم يستطع التلفظ به ، وكان وهو يضغط على شفتيه كأنما يصارع ، فى صمت ، حزنه المكنون ، متحديا ـ فى الوقت نفسه ـ إشفاقى عليه ورثائى له بنظرات نارية ضارية ، وعينين لا تطرفان .. وأخيرا اضطر ، برغم صلابته ، إلى البحث عن متكأ خلفه ، إذ انتهى ذلك الصراع بهزيمته واخذت الرعدة تسرى فى بدنه حتى أخمص قدمه ، على الرغم منه .. ثم تابع القول :

ـ كيف لقيت نهايتها ؟

فقلت فى نفسى : « أيها التعس المسكين ! .. إن لك قلبا وأعصابا مثل ما لاخوانك من بنى البشر .. فلماذا تتلهف على إخفائها ؟ .. إن كبرياءك لن تخفى على الله ! .. وانت إنما

تدفعها إلى أن تظل تهصر قلبك وأعصابك ، حتى تنتزع منك عبرات الهوان والمذلة ! » .

ثم أجبته بصوت عال :

ـ فى هدوء الحمل الوديع .. تنهدت ثم بسطت جسمها ، أشبه بطفل يصحو من نومه ، ثم يعود إلى الاستغراق فيه ثانية .. وبعد خمس دقائق أحسست بقلبها يخفق خفقة واحدة ، ثم يسكن إلى الأبد !

فسألنى مترددا ، كأنما يخشى أن تتضمن إجابتى أشياء لا يطيق سماعها :

ـ هل .. هل لم تذكر اسمى قط ؟

ـ إنها لم تستعد حواسها ، ولم تعرف أحدا ، منذ أن فارقتها .. وهى ترقد الآن وعلى وجهها ابتسامة حلوة ، كأنما كانت خواطرها الأخيرة تسرح فى أيامها البهيجة الأولى .. لقد ختمت حياتها فى حلم رقيق ، وأدعو الله أن تقوم من الموت بمثل هذه الدعة فى العالم الآخر ..

فصاح فى انفعال مروع ، وهو يضرب الأرض بقدمه ، ويزمجر فى نوبة مفاجئة من العاطفة الجامحة :

ـ بل فلتقم فى عذاب الجحيم ! .. لماذا ؟ .. لقد كانت كاذبة حتى النهاية .. أين هى ؟ .. إنها ليست هناك فى المنزل .. وليست فى السماء .. ولم يشملها الفناء .. فأين هى ؟ أواه يا كاثرين ، لقد قلت إنك لا تبالين بآلامى جميعها .. وأنا أدعو

الله دعاء واحدا ـ سأظل أردده حتى يجف لسانى ـ فلا عهدت الراحة والسلام ، يا كثرين ايرنشو ، ما دمت حيا .. وقد قلت إننى قتلتك .. فلتلازمنى روحك إذن لتقض مضجعى ! .. ان روح المقتول لا تفتأ تحـوم حول قاتله ، كما أعتقـد .. والأشباح قد رؤيت تجوب الأرض ، فيما اعلم .. فكونى معى دائما ، على أية صـورة تتراءين فيهـا .. وادفعى بى إلى الجنون ! .. ولكن لا تتركينى فى هذه الهاوية ، حيث لا أستطيع ان أجدك معى .. آه ! .. يا الهى ! .. هذا شىء يقصر عنه النطق ! .. إننى لا أستطيع العيش بغير حياتى .. ولا أستطيع الحياة بغير روحى ..

ثم أخذ يضرب رأسه بجذع الشجرة الخشن ، ثم يرفع عينيه ويطلق عواء لا يشبه أصوات البشر فى شىء ، إنما هو اشبه بعواء وحش كاسر يتمشى إليه الموت تحت طعنات المدى والحراب .. ولاحظت رشاشا من الدماء على لحاء الشجرة ، كذلك كان جبينه ويداه ملوثة بالدم .. والأرجح أن المنظر الذى شهدته لم يكن إلا تكرارا لما كان يجرى خلال الليل .. ولكنه لم يثر فى نفسى رحمة أو شفقة ، وإنما كان يخيفنى ويروعنى .. وبرغم ذلك فقد أنفت أن اتركه على هذه الحال .. ولكنه فى اللحظة التى استرد فيها من الوعى ما يكفى لأن يدرك اننى اراقبه ، صـاح بى فى صـوت كقصف الرعد ، يأمرنى بالانصراف .. ولقد اطعته على الفور ، إذ كان مما تعجز عنه قدرتى أن أهدىء روعه أو أسرى عنه ..

وحدد موعد جنازة مسز لينتون فى يوم الجمعة التالى لوفاتها

.. وظل نعشها ، حتى ذلك الموعد ، مكشوفا وقد نثرت فوقه الزهور وأوراق الأشجار العطرية ، فى حجرة الاسـتقبال الكبرى .. وكان لينتون يقضى الأيام والليالى بجواره ، حارسا لا يغفل ولا ينام .. اما الشىء الذى خفى عن الجميع ، ما عداى، فهو أن هيثكليف كان يقضى الليالى ، على الأقل ، فى الحديقة وقد حرم من الراحة كادجار .. ولم اكن على أى اتصال به ، ومع ذلك كنت أدرك رغبته وعزمه على الدخول ، إذا تهيأت له الفرصة المواتية .. فما أن حل مساء الثلاثاء ، وأسـدل الظلام ستوره ، واضطر سـيدى لفرط تعبه أن يأوى إلى فراشه نحو ساعتين ، حتى مضيت ففتحت إحدى النوافذ ، وقد تأثرت من مثابرته على البقاء فى الحديقة ، لاهيىء له فرصة يلقى فيها على وجه معبودته الشاحب نظرة وداع أخيرة .. ولم يغفل انتهاز هذه الفرصة ، فى حذر ولفترة قصيرة .. بل لقد كان من الحـذر فى دخوله ، دون أى صـوت أو جلبة ، بحيث ما كنت لأكتشف حضوره ، لولا أن وجدت الغطاء قد اختل نظامه حول وجه الجثة ، وان لاحظت على الأرض بجوار الفراش خصلة من الشعر الذهبى قد حزمت بخيط من الفضة، ما كدت افحصها حتى أدركت أنه اخذها من نوط كان معلقـا حول رقبة كاثرين .. كان هيثكليف قد فتح القلادة وألقى بمحتوياتها على الأرض ، ووضع بدلها خصلة من شعره الأسود .. ولكنى حزمت الاثنتين معا ووضعتهما فى القلادة سويا !

وقد دعى مستر هندلى ايرنشو لتشييع جثمان شقيقته إلى مقرها الأخير ، ولكنه لم يحضر ولم يرسل اعتذارا ! .

وهكذا كانت الجنازة قاصرة ، فيما عدا زوجها ، على المستأجرين والخدم فحسب .. أما ايزابيلا فلم يدعها أحد ..

ولقد دهش القرويون إذ رأوا أن كاثرين لم تدفن فى صحن الكنيسة تحت النصب المنقوش الخاص بآل لينتون ، ولا فى مقابر أهلها خارجه .. وإنما دفن جثمانها فى قبر منفرد ، على سفح تل منحدر يغطيه العشب الأخضر ، فى ركن قصى من فناء الكنيسة ، بجوار السور الذى كان منخفضا فى ذلك الموضع بحيث زحفت على القبر الأعشاب المتسلقة ونبات التوت البرى الممتدة من منطقة الأحراش والبرارى، حتى كادت تغطيه تماما..

وفى البقعة نفسها يرقد زوجها الآن ، وعلى قبر كل منهما شاهد بسيط ، وقد أقيمت عند أقدامهما كتلة صماء من الحجر الأسمر لتميز موضع القبرين .

* * *

الفصل السابع عشر

كان يوم الجمعة المشئوم — يوم وسدنا كاثرين الثرى — آخر عهدنا بالطقس الجميل ، طيلة شهر كامل .. ففى مساء ذلك اليوم انقلب الجو بغتة ، وهبت الرياح من الجنوب نحو الشمال الشرقى ، فأخذت ترخى حملها من المطر الغزير بادىء ذى بدء ، ثم قطع البرد الصلبة ، وأخيرا رقائق الثلج الهشة الناصعة البياض .. حتى إذا أصبحنا فى الغداة ، كان من العسير أن يتصور إنسان أننا قضينا ثلاثة أسابيع فى جو شبيه بأيام الصيف .. فقد اختفت الأقاحى والزهور البرية تحت ركام الثلوج المتدفقة ، وسكتت القنابر عن شدوها الصداح ، وذبلت أوراق الشجر الوليدة وأسود لونها .. وهكذا طلع علينا ذلك الصباح باردا ، موحشا ، كئيبا ..

كان سيدى معتكفا فى حجرته ، أما أنا فقد احتللت حجرة الجلوس الوحيدة ، وحولتها إلى دار للحضانة ! .. وكنت جالسة فيها ، وفوق ركبتى تلك الطفلة الشبيهة بدمية صغيرة لا تكف عن الأنين ، وقد أخذت أهدهدها وأهزها يمنة ويسرة ، وأرقب بين الفينة والفينة رقائق الثلج التى كانت لما تزل تنهمر فوق افريز النافذة المجردة من الستائر ، وترتفع فوقه طبقة بعد طبقة ، عندما فتح الباب ، ودخل شخص مبهور الأنفاس ، يضحك بصوت عال ! .. وقد طغى سخطى وغضبى على دهشتى لحظة قصيرة ؛ إذ حسبت القادم واحدة من الخدم ، وصحت بها منتهرة :

— حسبك وكفى ! .. كيف تجرؤين على إظهار طيشك ومجونك هنا ؟ .. ماذا يقول مستر لينتون إذا سمعك ؟..

فأجابنى صوت مألوف :

— أرجو المعذرة ! .. ولكنى اعلم ان ادجار فى فراشه الآن ، كما غلبنى الضحك ولم أستطع إيقافه ..

وإذ نطقت المتحدثة بهذه العبارة ، تقدمت نحو المدفأة ، وهى تلهث بأنفاسها وقد وضعت يدها على جنبها .. وما لبثت أن استطردت بعد صمت قصير :

— لقد ظللت أجرى طول الطريق من « مرتفعات ويذرنج »، إلى حيث كانت السيول تدفعنى وتغمرنى .. فليس فى وسعى أن احصى عدد المرات التى وقعت فيها .. أواه ! .. ان كل ما فى بدنى يخزنى ويؤلمنى .. ولكن لاتنزعجى ! .. سوف اشرح لك كل شىء بمجرد أن أجد فى نفسى القدرة على الكلام .. وكل ما أرجوه الآن هو أن تأمرى بإعداد العربة لتقلنى إلى جيمرتون ، وأن تطلبى من إحدى الخدم إحضار بعض الثياب لى من خزانة ملابسى ..

كانت القادمة ، كما احسبك قد ادركت، هى مسز هيثكليف (ايزابيلا) .. ومن المحقق أنها لم تكن تبدو فى حالة تبرر الضحك .. كان شعرها متهدلا على كتفيها تتخلله ندف الثلج ، ويقطر منه الماء .. وكانت ترتدى ثوبا من ثياب الفتيات التى اعتادت لبسها ، يلائم سنها اكثر مما يليق

بمركزها .. ثوبا طويلا ذا اكمام قصيرة .. كما لم تكن تغطى رأسها أو تضع وشاحا حول عنقها .. وكان ثوبها حريريا رقيقا الصقه البلل بجسمها ، على حين كانت قدماها لا يحميهما سوى نعل خفيف مفتوح .. وإلى جانب ذلك ، كان يمتد تحت أذنها جرح غائر لم يحل دون نزف الدم منه بغزارة سوى البرد القارس ، كما كان وجهها الناصع البياض مليئا بالكدمات والخدوش ، وجسدها الناحل لا يكاد يقوى على التماسك من الإعياء والهزال معا .. ولك أن تتصور مبلغ فزعى الذى لم يخفف من حدته الوقت الذى انقضى منذ أن وقعت أنظارى عليها حتى استطعت أن افحصها فى إمعان ، فصحت بها قائلة :

— أيتها السيدة العزيزة ، إننى لن أتحرك من مكانى ، ولن أسمع منك كلمة واحدة أخرى ، حتى تنزعى كل قطعة من ثيابك ، وتستبدلى بها ثيابا جافة دافئة .. ولا ريب أنك لن تذهبى الليلة إلى جيمرتون وأنت فى هذه الحالة ، فلا داعى إذن لإعداد المركبة ..

— بل سوف أذهب حتما ، سواء ركبت أم مشيت ! .. ولكن لا اعتراض لدى على تبديل ملابسى والظهور بالمظهر اللائق .. و .. آه ! .. انظرى كيف يجرى الدم فوق عنقى الآن ! .. إن حرارة النار تجعله لاذعا أليما !

وأصرت على أن انفذ أوامرها قبل أن تسمح لى بأن المسها بيدى .. ولبثت حتى سمعتنى آمر الخدم بإعداد

المركبة ، وإحدى الوصيفات بإحضار ربطة من الثياب واللوازم الأخرى ، وعندئذ فقط رضيت بأن أقوم بتضميد جرحها ، ومساعدتها فى استبدال ملابسها ..

وعندما فرغت من مهمتى ، اتخذت مجلسها على مقعد مريح بجانب الموقد ، وأمامها قدح من الشاى الساخن ، ثم بدأت تقول :

ـ تعالى الآن يا ايلين ، واجلسى أمامى .. لكن ابعدى أولا بنت كاثرين المسكينة ، فلست احب أن أراها .. ولا ينبغى أن تحسبينى قليلة الاكتراث لموت كاثرين بسبب مسلكى الأحمق عند دخولى .. فقد بكيت ، أنا الأخرى ، بمرارة شديدة ، وكان لدى من أسباب البكاء اكثر مما لدى أى إنسان غيرى ، إذ افترقنا متخاصمتين ، كما تذكرين ، ولن أغفر لنفسى ذلك قط .. ولكنى برغم ذلك ما كنت بالتى تشاطره أحزانه ، ذلك الوحش المفترس .. آه ! .. ناولينى محراك النار ! .. هذا آخر شىء اقتنيته ، مما يمت إليه بصلة ..

ثم نزعت خاتم الزواج الذهبى من أصبعها الثالث والقت به على الأرض ، وراحت تدق عليه بالمحراك الحديدى ، متابعة الحديث :

ـ سوف أحطمه ، ثم أرمى به إلى النار ..

وشفعت القول بالفعل ، إذ تناولت الحلية المشوهة ووضعتها بين قطع الفحم المتوهجة ، واستطردت تقول :

ـ والآن .. عليه أن يشترى خاتما آخر ، إذا استطاع ان يدركنى ويعيدنى إليه ثانية ! .. وهو خليق بأن يحضر ليأخذنى من هنا ، لا لشىء سوى إغاظة ادجار والنيل منه .. لذلك لا اجرؤ على البقاء ، حتى لا تتملك هذه الفكرة رأسه الشرير ! .. ثم ان ادجار لم يكن بى شفوقا رحيما ، أليس كذلك ؟ .. ولست بالتى تتهافت على طلب معونته ، ولا بالتى تجلب عليه المزيد من المتاعب .. وقد ألجأتنى الضرورة إلى أن أنشد المأوى هنا ، ولكنى لو لم أعلم انه بعيد عن طريقى ، للبثت فى المطبخ ريثما أغسل وجهى ، واستدفىء قليلا ، وأدعوك لتحضرى لى ما أحتاج إليه ، ثم لرحلت ثانية إلى أية بقعة فى الأرض بعيدا عن متناول ذلك اللعين .. ذلك الشيطان المتجسد فى بدن إنسان ! .. آه ! .. لقد كان فى ثورة غضب جنونى ! .. ولو انه أدركنى وأمسك بى ! .. من المؤسف ان هندلى ليس قرينا له فى القوة والبأس ! .. ولولا ذلك لما رحلت قبل أن أراه يمحى من الوجود ، لو أن هندلى كان قادرا على ذلك ..

فقاطعتها قائلة :

ـ حسنا .. مهلا يا آنسة ، ولا تنطلقى فى الكلام بهذه السرعة .. فسوف تفسدين وضع المنديل الذى ربطته حول وجهك ، وتجعلين الجرح يدمى من جديد .. هيا اشربى الشاى ، والتقطى أنفاسك المتلاحقة ، وخلى عنك هذا الضحك .. فالضحك الآن لا يليق بهذا المنزل المنكوب ، ولا بحالتك المؤسفة !

ـ هذه حقيقة غير منكورة يا ايلين ! .. ولكن أصغى إلى هذه الطفلة .. إنها لا تكف عن النواح منذ قدومى .. فأبعديها عن مسامعى ساعة أو بعض الساعة ، فلن امكث هنا طويلا ..

فقرعت الجرس، وعهدت بالوليدة إلى عناية إحدى الخادمات ثم مضيت أسألها عما دفعها إلى التعجيل بالفرار من « مرتفعات ويذرنج » ، فى مثل هذه الحالة الغريبة ، وإلى اين تزمع الذهاب ، ما دامت تأبى البقاء معنا .. فأجابت :

ـ كان ينبغى ، بل لقد كنت أود ، أن ابقى لأسرى عن ادجار واقوم على رعاية الطفلة المنكودة .. لهذين السببين ولأن « الجرانج » هو بيتى الطبيعى الحق .. ولكنى أؤكد لك أنه لن يدعنى وشأنى .. أتظننيه يطيق رؤيتى هنا ناعمة البال ، تكتسى عظامى الناحلة باللحم ، أو يطيق مجرد التفكير فى أننا نعيش هنا فى هدوء وهناء ، ثم لا يصمم على أن ينفث سمه فيقضى به على راحتنا وسلامنا ؟ .. إننى الآن راضية مطمئنة إذ تحققت من كراهيته لى إلى الحد الذى يسوؤه فيه حقا أن يجدنى على مدى السمع أو مرمى البصر .. كنت الاحظ عندما امثل فى حضرته كيف تتقلص عضلات وجهه، فى حركات لا إرادية ، معبرة عما يضمره لى من حقد ، وما يكنه لى من بغضاء ، ينبعث بعضها من علمه بالأسباب القوية التى تدفعنى إلى الإحساس بمثل هذه البغضاء نحوه ، وينشأ باقيها من نفوره الأصيل منى .. وهذه البغضاء قد أضحت من القوة بحيث تجعلنى أشعر عن يقين بأنه لن يسعى ورائى أو يطاردنى فى ارجاء إنجلترا كلها ، إذا ما دبرت فرارا نهائيا ، ولذلك

يجب أن اذهب إلى مكان بعيد .. ولقد شفيت تماما من تعلقى السابق به ، ورغبتى المأفونة فى أن القى مصرعى على يديه !.. بل شد ما أود الآن أن يقتل نفسه بيده ! .. لقد قضى على حبى له ، وأطفأ شعلته المتقدة ، بحيث هدأ بالى واسترحت!.. ومع ذلك فما زلت اذكر كيف أحببته ، وما زلت اتصور كيف كان يمكن أن اقيم على حبه لو .. لا .. لا .. فحتى لو كان يهيم بى حبا ، فإن طبيعته الشيطانية كانت خليقة بأن تكشف عن وجودها على صورة ما .. ولا بد أن كاثرين كانت ذات ذوق منحرف إلى حد شنيع حتى تنطوى له على كل هذا القدر من التقدير والإعزاز، برغم علمها حق العلم بطبيعته.. يا للوحش ! .. أرجو أن يمحو الله ذكراه من الوجود ، ومن ذاكرتى !

فقلت :

ـ صه ! .. صه ! .. إنه إنسان على أية حال .. ألا كونى أكثر انصافا وإحسانا ، فهناك رجال اسوأ منه بكثير برغم كل شىء ..

فردت على قائلة :

ـ ولكنه ليس إنسانا على الاطلاق ، ولا حق له فى شفقتى وإحسانى .. لقد وهبته قلبى ، فأخذه وظل يعصره ويخنقه حتى قضى عليه ، ثم ألقاه إلى ثانية جثة هامدة ! .. ان الناس يحسون بقلوبهم يا ايلين ، وما دام قد دمر قلبى ، فكيف يمكن أن أشعر نحوه بشىء ؟ .. وما كنت لأشفق عليه أو

أرثى لحاله ، ولو ظل يئن ويتأوه من اليوم حتى يوم مماته ، ويذرف الدموع دما على كاثرين .. كلا .. كلا .. لن أفعل حقــا ..

وعندئذ أخذت ايزابيل فى النحيب ، ولكنها ما أن ذرفت بعض الدموع حتى كفكفت عبراتها واستطردت تقول :

ــ إنك سألتنى عما دفعنى إلى الفرار أخيرا ؟ .. لقد اضطررت إلى هذه المحاولة ، لأننى أفلحت فى إثارة غضبه بما يفوق خبثه ولؤمه .. فإن انتزاع الأعصــاب من جذورها ، بملاقط محماة فى النار ، يحتاج إلى مزيد من البرود والهدوء أكثر من الضرب واللطم فوق الرأس .. وقد ثارت ثائرته حتى نسى حذره الذى كان يفاخر به ، ولجأ إلى العنف القتال .. وملأنى السرور إذ استطعت أن أخرجه عن طوره ، فأيقظ هذا السرور فى نفسى غريزة المحافظة على الحياة ، وهكذا انطلقت هاربة على الفور .. فلو عدت إليه يوما من الأيام ، والقيت بنفسى بين يديه ثانيــة ، فإننى أستحق أن ينتقم منى شر انتقام ..

وأنت تعلمين أن مستر ايرنشو كان يجب أن يحضر الجنازة أمس .. وقد ظل محتفظا بوعيه وصحوته ، ولم يقرب الخمر، لهذا الغرض .. فلم يذهب إلى الفراش، كعادته ، فى السادسة صباحا فاقد الوعى ، ليقوم عند الظهر فيستأنف الشراب .. وهكذا استيقظ مكتئبا يكاد الانقباض يقتله ، لا يصلح للذهاب إلى الكنيسة إلا كما يصلح للذهاب إلى مرقص .. وبدلا من

هذا أو ذاك ، جلس بجوار المدفأة وراح يجرع كؤوسا مترعة من الجن أو البراندى ..

أما هيثكليف ــ وإن بدنى ليقشعر عندما أنطق باسمه ــ فقد ظل غريبا عن المنزل منذ يوم الأحد الماضى حتى اليوم .. ولست أدرى إن كانت الملائكة هى التى كانت تطعمه ، أم أخوه من الجان فى العالم الســفلى ! .. ولكنه لم يتناول ذرة من الطعام معنا زهاء أسبوع .. كان يعود إلى المنزل فى الفجر ، فيصعد إلى حجرته ويوصد بابها عليه ، كأنما كان هنــاك من يفكر فى اشتهاء رفقته ! .. وهناك يظل يصلى ويبتهل كأنه من غلاة المتدينين .. ولكن المعبود الذى كان يبتهل إليه كان من التراب والرماد ! .. وكان « الله » ، إذا دعاه مختلطا على نحو غريب بأبيه الشيطان الأسود ! .. وبعــد أن يتم هــذه الصلوات الثمينة ، التى كانت تطول عادة حتى يبح صــوته ويختنق فى حلقه ، فإنه يبرح الدار لا يلوى على شىء ، فيمضى قدما إلى الجرانج .. وشد ما أعجب كيف أن ادجار لم يرسل فى طلب شرطى يقوده إلى السجن ! .. أما أنا ، فعلى ما كنت فيه من حزن وأسى على كاثرين ، فقد كان من المستحيل أن أتحاشى اعتبار هذه الفترة التى نجــوت فيها من طغيــانه المهين ، كإجازة سعيدة !

واستعدت مرحى بما يكفى لسماع خطب جوزيف الطويلة الأبدية دون بكاء ، وللمضى فى الدار ذهابا وجيئة فى خطى غير خطى اللص المذعور التى كنت أمشى بهــا من قبل .. ولا أحسبك تظنيننى خليقة بأن أبكى من أى شىء يقوله جوزيف،

ولكنه وهيرتون شر رفقة يمكن أن يبتلى بها إنسان .. ولخير
لى أن أجلس مع هندلى ، واستمع إلى حديثه البشع المروع ،
من أن أجلس مع « السيد الصغير » ، وحاميه الأمين ، ذلك
الشيخ المأفون المرذول .. وعندما يكون هيثكليف فى المنزل ،
فاننى أضطر غالبا إلى الالتجاء إلى المطبخ فى رفقتهما ، أو
ارافق الجوع فى إحدى الحجرات الرطبة غير المأهولة .. أما
إذا كان خارج الدار ، كما كان شأنه طوال هذا الأسبوع ، فانى
أقيم لنفسى منضدة ومقعدا عند ركن المدفأة بحجرة الجلوس ،
ولا أبالى بما يفعله مستر ايرنشو ليشغل به نفسه ، كما أنه
من جانبه لم يكن ليزج بنفسه فيما أتخذه أنا من ترتيبات .
وهو الآن أكثر هدوءا مما اعتاد أن يكون ، ما لم يستفزه أحد
أو يستثيره ، وأشد عبوسا واكتئابا ، وأقل غضبا وهياجا ..
ويؤكد جوزيف يقينه فى أنه أصبح رجلا آخر ، وأن الله قد
مس قلبه ، وهكذا نال الخلاص كأنما « طهرته النار » .. وقد
حيرنى أن استشف علامة واحدة من علامات هذا التبدل
المزعوم ، ولكن ذلك ليس من شأنى فى شىء !

وكنت ليلة الأمس أجلس فى ركنى المعهود ، أطالع فى بعض
الكتب القديمة ، حتى ساعة متأخرة إذ أوشك الليل أن
ينتصف .. وكان الصعود إلى الطابق العلوى يبدو بشعا
مروعا ، مع تلك العاصفة الثلجية الضارية التى تهب فى
الخارج ، ومع انطلاق أفكارى باستمرار نحو فناء الكنيسة
وذلك القبر الحديث البناء ! .. ولم أكن أجرؤ على رفع أنظارى
من الصفحات المفتوحة أمامى ، لأن ذلك المنظر الحزين كان

يسارع إلى احتلال مكانها أمام عينى .. وكان هندلى يجلس
فى الناحية الأخرى ، وقد أحنى رأسه وأسنده إلى راحته ،
ولعله كان يفكر فى ذلك الأمر نفسه ! .. وكان قد كف عن
الشراب عند مرحلة لم تصل به إلى فقدان الصواب ، وجلس
ساكنا لا يتحرك أو ينطق بكلمة نحو ساعتين أو ثلاث .. ولم
يكن يسمع فى المنزل كله صوت ، غير ولولة الرياح التى كانت
ترج النوافذ بين آن وآخر ، وغير طقطقة الفحم فى المدفأة ،
أو طقات المقراض كلما أزلت به ذبالة الشموع المحترقة ..
أما جوزيف وهيرتون فالأرجح أنهما كانا ينعمان بسبات عميق
فى فراشهما .. كان مجلسنا حزينا غاية الحزن ، وكنت خلال
قراءتى ، أزفر زفرات حارة ، إذ كان يبدو لى أن كل ما فى
العالم من بهجة وسرور قد نضب معينه وتلاشى من الوجود ،
ولن يعود إليه قط ثانية ..

وأخيرا مزق هذا الصمت الحزين صوت سقاطة باب المطبخ
وهى تتحرك فى مكانها ، إذ بكر هيثكليف فى عودته من جولته
الليلية عن المعتاد ، وأحسب أن العاصفة التى هبت فجأة كانت
السبب فى ذلك .. ولكن باب المطبخ كان موصدا من الداخل
بالمزاليج ، فسمعناه يدور حول الدار ليدخل من الباب الآخر
.. عندئذ انبعثت واقفة ، وعلى شفتى صيحة لم أستطع
كتمانها ، كانت تعبر عما يختلج فى نفسى ، وحدجت برفيقى
الذى كان يحملق بأنظاره فى الباب إلى أن يستدير وينظر
إلى ، قائلا :

ـ سوف أدعه واقفا فى الخارج خمس دقائق أخرى ، فهل لديك مانع ؟

ـ كلا .. لك أن تدعه خارجا الليل بطوله من أجلى .. أسرع .. ضع المفتاح فى القفل وادفع المزاليج وراء الباب ..

وفعل ايرنشو ذلك قبل أن يصل القادم إلى واجهة الدار ، ثم عاد وجذب مقعده نحو الجانب المقابل من المائدة أمامى ، حيث استند إليه ، ومال نحوى ، وأخذ يتفرس فى عينى متفحصا ، ليرى إن كنت أشاطره ذلك الحقد النارى الذى كان يتوهج فى عينيه .. ولكنه كان يبدو ويحس كأنه قاتل يتأهب للفتك بفريسته ، فلم يستطع أن يدرك مشاعرى تماما ، وإن كان قد تبين منها ما يكفى لتشجيعه على الكلام .. فقال :

ـ ان لكلينا دينا عظيما لابد من اقتضائه من ذلك الرجل الذى يقف خارجا .. فإذا لم يكن أحدنا جبانا رعديدا ، فإن فى وسعنا أن نوحد جهدنا لاستخلاص هـذا الدين .. فهل تراك رخوة خائرة العزيمة كأخيك ؟ .. وهل تودين احتمال ما تعانينه حتى النهاية ولا تحاولين مرة واحدة أن تثأرى لنفسك ؟ ..

فأجبته :

ـ لقد أضنانى الاحتمال الآن ، ولسوف يسرنى أن أثار لنفسى على نحو لا يرتد على وبالا .. ولكن الغدر والعنف حراب ذات نصال مرهفة فى كلا طرفيها ، وهى تجرح أولئك الذين يلجأون إليها بأشد مما تفعل بأعدائهم ..

فصرخ هندلى فى وجهى قائلا :

ـ ان الغدر والعنف هما الجزاء الحق للغدر والعنف ! .. وإننى يا مسز هيثكليف لا أسألك أن تفعلى شيئا ، بل اجلسى ساكنة فى مكانك وانسى أن لك لسانا يستطيع النطق ! .. والآن ، هل فى وسعك أن تفعلى ذلك ؟.. إننى على يقين من أنك لن تقلى عنى سرورا واستمتاعا بمشاهدة نهاية الشيطان الأخيرة !.. إنه سوف يكون هـلاكك ، إذا لم تسبقى إلى إهلاكه ، وسـوف يكون دمارى .. ألا لعنة الله على الوغد الجهنمى !.. إنه يقرع الباب كأنما أصبح سيد هذه الدار !.. عدينى بأن تمسكى لسانك ، وسترين أنك قبل أن تدق الساعة ، وقد بقيت ثلاث دقائق على الساعة الواحدة ، قد غدوت امرأة حرة !

وأخرج من صدريته ذلك السلاح الذى وصفته لك فى خطابى ، وأراد أن يطفىء الشمعة لولا أننى بادرت إلى اختطافها منه ، وأمسكت بذراعه قائلة :

ـ لن أمسك لسانى .. كما أنك لا يجب أن تمسه .. دع الباب موصدا ، واركن إلى الهدوء قليلا ..

فصاح الإنسان اليائس قائلا :

ـ كلا .. لقد انتهيت إلى قرار حاسم ، وأقسم بالله أن أنفذه .. سوف أسدى إليك جميلا برغم أنفك ، وأرد إلى هيرتون حقوقه .. ولا أراك فى حاجة لأن تشغلى رأسك بحمايتى ! .. لقد ذهبت كاثرين ، ولم يعد فى الوجود من

يحزن على ، أو يلحقه العار بسببى لو أننى قطعت عنقى هذه اللحظة .. وقد حان الوقت لوضع نهاية لهذا الأمر ..

ولو أننى ناضلته وقتئذ فكأننى كنت أصارع دبا هائجا ، ولو ناقشته فكأننى كنت أجادل مجنونا فاقد الصواب .. فلم تعد أمامى من حيلة الجأ إليها سـوى أن أعدو إلى إحدى النوافذ لأحذر ضحيته مما ينتظره من قضاء .. فصحت فى نبرات يخالجها الانتصار :

ـ خير لك أن تبحث عن مأوى لك فى مكان آخر الليلة ، فإن مستر ايرنشو يفكر فى أن يطلق عليك النار إذا أصررت على محاولة الدخول ..

ـ بل خير لك أن تفتحى الباب أيتها الـ ..

قال ذلك وهو يخاطبنى بلفظ رشـيق لا أرى ما يدعو لترديده ! .. ولكنى عدت أقول له :

ـ لن أزج بنفسى فى هـذا الأمر ، فما عليك إلا أن تدخل وتصاب بالرصاص إذا كان ذلك يسرك ! .. أما أنا فقد أديت واجبى ..

وما انتهيت من كلامى حتى أغلقت النافذة ثانيـة ، وعدت إلى مكانى بجوار الموقد .. وإذ كانت ذخيرتى من النفاق قـد فرغت ، فلم يعد فى وسعى أن أتظاهر بالقلق نحو الخطر الذى يتهدده ! .. أما ايرنشو فقد راح يسبنى فى حـرارة ويؤكد أننى ما زلت أحب الوغد بعد ، ويطلق على صنوفا من النعوت والصفات لما أظهرته من نفسية وضيعة ! .. أما أنا فكنت فى

قرارة قلبى (ولم يؤنبنى ضـميرى على ذلك قط) أرى كم تكون نعمة لهندلى ورحمة لو استطاع هيثكليف أن يضع نهاية لبؤسه ، وكم تكون نعمة لى وبركة لو استطاع هو أن يرسل هيثكليف إلى مثواه العادل ! .. وفيما كنت جالسة أهدهد هـذه الخـواطر ، إذا بمصراع إحدى النوافذ الضيقة خلف مقعدى يهوى إلى الأرض فجأة بعد أن أهوى عليه هيثكليف بضربات عنيفة ، ثم بدا من خـلال النافذة وجهـه الأسود الهضيم .. ولم تكن القضبان الحديدية من السعة بحيث تسمح بمرور كتفيه ، فابتسمت ابتهـاجا لما أحسست به من أمن مزعوم .. وكان الثلج الأبيض يغطى شعره وثيابه ، بينمـا كانت أنيابه الحـادة المفترسة تتألق فى الظلام ، وقـد جعله البرد والغضب يكشر عنها ..

وما لبث أن راح « يزوم » كما يقول جوزيف ، قائلا :

ـ دعينى أدخل يا ايزابيلا ، وإلا جعلتك تندمين طويلا ..

فأجبته :

ـ ليس فى وسعى أن أرتكب جريمة قتل .. فإن مسـتر هنـدلى يقف مترقبـا وفى يده سـكين ومسـدس محشـو بالرصاص ..

ـ افتحى لى باب المطبخ ..

ـ سوف يسبقك هندلى إليه .. ثم ما أتفه هـذا الحب الذى تطوى عليه جوانحك فلا يجعلك تطيق رذاذا من الثلوج ! .. لقد كنا نرقد فى فرشـنا هانئين ناعمين طالما كان القمر

الصيف مشرقا زاهيا ، ولكنك فى اللحظة التى تعود فيها عصفة من عواصف الشتاء تسارع بالفرار والبحث عن ملجأ ومأوى ! .. لو اننى كنت فى مكانك يا هيثكليف ، لذهبت ورقدت فوق قبرها حتى أموت اشبه بكلب أمين ذى وفاء !.. فان الدنيا لا تستحق العيش فيها الآن حقا ، اليس كذلك ؟.. وقد أوحيت إلى ، بما لا يقبل الشك ، بأن كاثرين كانت وحدها كل ما فى حياتك من بهجة وسعادة ، ولست استطيع أن أتصور كيف تفكر فى أن تعيش بعد فقدها !

وعندئذ هتف رفيقى وهو يندفع نحو فجوة النافذة :

ــ إنه هناك .. اليس كذلك ؟. إذا استطعت أن أخرج ذراعى فسوف أصيبه حتما !

وأخشى يا ايلين أن تعدينى شريرة متأصلة الشر ، ولكنك لا تعرفين كل شىء ، فلا تحكمى على .. فاننى ما كنت لأشترك أو أحرض على أية محاولة للاعتداء على حياته ، مهما يكن من أمر .. ولكن ما من شك فى أننى كنت أتمنى موته !.. ولذلك فقد خاب أملى إلى حد مخيف ، وانخلع قلبى من الرعب مما سوف يكون لحديثى العنيف من عواقب مروعة ، عندما ألقى بنفسه على سلاح ايرنشو وانتزعه من قبضته ..

وانطلقت الرصاصة مدوية .. أما السكين فإنها عندما ارتدت إلى مخبئها ، أطبقت على رسغ صاحبها .. وانتزعها هيثكليف فى قوة خارقة ، حتى مزقت اللحم وهى تجرى فوقه ، ثم ألقى بها فى جيبه وهى تقطر بالدماء .. وعندئذ

تناول حجرا ضخما وراح يحطم به الفاصل بين النافذتين ، ثم وثب إلى داخل الحجرة .. وكان غريمه قد وقع على الأرض فاقد الوعى ، من فرط الألم ، ومن فيض الدماء التى تدفقت من شريان كبير مقطوع .. فأخذ الوغد يركله ويطؤه بقدميه ويدق البلاط برأسه المرة تلو المرة ، وهو يمسك بى بيده الأخرى ليحول دون استنجادى بجوزيف .. وكان يبذل جهدا فوق طاقة البشر فى نكران الذات ودفع عوامل الإغراء ، حتى لا يجهز عليه نهائيا .. ولكنه إذ بدأ يلهث من التعب أخيرا ، كفّ عن متابعة عمله الشيطانى ، وراح يجر الجسم المسجى حتى الأريكة ، ثم مزق كم سترة ايرنشو وأخذ يربط الجرح فى خشونة وحشية وهو يبصق ويلعن فى حمية لا تقل عن التى كان يركله بها .. وإذ ألقيت نفسى قد تحررت من قبضته، لم أضيع شيئا من الوقت فى البحث عن الخادم الشيخ ، الذى ما كاد يستوعب فى بطء وتبلد فحوى قصتى العاجلة ، حتى أسرع يهبط الدرج كل اثنتين معا ، وهو يغمغم لاهثا :

ــ ماذا يجب عمله الآن ؟.. ماذا يجب عمله الآن ؟..

فصاح به هيثكليف فى صوت كهزيم الرعد :

ــ هاكَ ما يجب عمله .. ان سيدك مجنون ، ولو ظل على هذه الحال شهرا آخر ، فسوف أبعث به إلى مستشفى الأمراض العقلية .. ثم كيف اجترأت ، بحق الشيطان على إيصاد الأبواب دونى ، أيها الكلب الأهتم ؟ .. لا تقف هكذا تغمغم وتهمهم فى مكانك .. تعال ، فاننى لن أقوم على تمريضه

.. اغسل هذه الأقذار ونظف الجرح .. ولكن حذار من شرر شمعتك ، فان أكثر من نصف هذه الدماء من الكحول !

فهتف جوزيف وهو يرفع ذراعيه ، وعينيه ، إلى السماء فزعا ورعبا :

ـ وإذن فقد كنت تعمل على الفتك به ؟.. إن عينى لم تقعا على مثل هذا المنظر قط من قبل !.. فليكن الله ..

وعندئذ دفعه هيثليف دفعة قوية ألقت به على ركبتيه وسط الدماء ، ثم طرح إليه بمنشفة .. وبدلا من أن يأخذ جوزيف فى مسح الدماء ، ضم يديه معا ، وانطلق فى صلاة انتزعت ألفاظها المجيبة الضحك منى برغم إرادتى .. فقد كنت فى حالة عقلية تجعلنى أتأثر من أتفه شىء .. بل الواقع اننى كنت فاقدة الشعور متبلدة الحس كما يبدو بعض المجرمين وهم عند أعتاب المشنقة !

فقال الطاغية وقد نبهته ضحكتى :

ـ آه !.. لقد نسيتك .. انت التى يجب أن تقوم بهذا العمل .. اركعى على الأرض .. هل كنت تتآمرين معه ضدى أيتها الأفعى ؟.. هيا .. هذا هو العمل الذى يليق بك ..

وراح يهزنى حتى اصطكت أسنانى فى قوة ، ثم طوح بى إلى جوار جوزيف .. وكان هذا الأخير ماضيا فى دعواته وابتهالاته حتى أتمها فى ثبات ، وعندئذ نهض ناذرا أن يذهب على الفور إلى « الجرانج » ، فقد كان مستر لينتون قاضيا ، ولو ماتت له خمسون زوجة فلن يتأخر عن التحقيق فى هذا الأمر ..



وكان غريمه قد وقع على الأرض فاقد الوعى ، من فرط الألم ، ومن فيض الدماء التى تدفقت من شريان كبير مقطوع ..

وكان من العناد والاصرار على تنفيذ عزمه بحيث رأى هيثكليف من الأوفق أن ينتزع من شفتى ملخصا لما حدث .. كان يقف فوق راسى ، لاحثا بالشر والضغينة ، بينما كنت أنطق بشهادتى فى نفور ، ردا على أسئلته المتتابعة .. وقد احتاج الأمر إلى جهد عظيم لإقناع العجوز بأن هيثكليف لم يكن المعتدى ، خصوصا وأن اجاباتى كانت تنتزع منى فى عناء .. ومهما يكن من أمر ، فسرعان ما اقتنعه مستر ايرنشو نفسه بأنه ما زال على قيد الحياة ، فقد أسرع جوزيف باحضار جرعة من الشراب كان لها أثرها فى إسعاف سيده ، فما لبث أن استرد الوعى والحراك .. وإذ كان هيثكليف يدرك أن خصمه يجهل كل شىء عن المعاملة التى لقيها منه بينما كان فاقد الرشد ، فقد دعاه بالسكير المخرف ، وقال إنه سوف يغضى عن مسلكه الاثيم ، ثم نصحه بأن يذهب إلى فراشه !.. وكم كان سرورى إذ فارقنا بعد أن ألقى بهذه النصيحة القيمة .. فاستلقى هندلى على الأرض بجوار الموقد ، أما أنا فانصرفت إلى حجرتى ، متعجبة من أننى افلت منه بهذه السهولة ..

وعندما نزلت صباح اليوم ، قبل الظهر بنصف ساعة ، كان مستر هندلى جالسا بجانب النار ، شاحب الوجه كالأموات ، بينما وقف شيطانه الزنيم مستندا إلى المدفأة ، وهو لا يقل عنه شحوبا واصفرارا .. ولم يكن يبدو على أحدهما ميل إلى تناول الطعام ، حتى إذا ما طال انتظارى ، وبرد الطعام وفتر فوق المائدة ، بدأت الأكل وحدى .. وكنت أستشعر نوعا من الرضى والسمو ، كلما ألقيت بين الحين والآخر نظرة على رفيقى

الصامتين ، وأحس فى أعماقى براحة ضميرى الذى لا يثقله وزر أو سوء .. فلما فرغت من طعامى ، تذرعت بالجراءة لممارسة حريتى المعتادة فى الاقتراب من الموقد ، فدرت حول مقعد أيرنشو ، وجثوت فى الركن إلى جانبه ..

ولم يلق هيثكليف نظرة واحدة نحوى ، اما انا فقد رحت أحدق النظر إليه وأتفرس فى أساريره ، بقلب قوى غير هياب ، وكأنها قد تحولت إلى حجر منحوت .. كان جبينه ، الذى حسبته ذات مرة معبرا عن الرجولة الحقة ، والذى أحسبه الآن كجبين الشيطان ، تظلله سحابة كثيفة من الهم والأسى .. وكانت عيناه الثعبانيتان ، قد أطفأ بريقهما السهد ، وربما البكاء إذ كانت أهدابهما وقتئذ رطبة ندية .. اما شفتاه اللتان تجردتا من سخريتهما الضارية ، فقد أطبقتا فى قوة وكأنما ختم عليهما حزن دفين مكتوم .. ولو أنه كان شخصا آخر ، لأخفيت وجهى بين يدى أمام مثل هذا الحزن العظيم .. أما فى حالته هو ، فقد وجدت فيها ما يرضينى ويثلج قلبى .. ومهما يكن يبدو من الخسة والنذالة ان يسب المرء عدوا مهزوما ، إلا أننى ما كنت لأدع هذه الفرصة تمر دون أن أرميه بسهم من يدى .. فساعة ضعفه هى اللحظة الوحيدة التى أذوق فيها لذة مقابلة الاساءة بالاساءة ..

فقاطعتها قائلة :

ـ بئس ما فعلت يا آنسة ! .. ان المرء ليظن أنكِ ما فتحت كتابا مقدسا فى حياتك .. وإذا كان الله قد ابتلى اعداءك ،

فان ذلك خليق بأن يكفيك .. فمن النذالة والكفران معا أن
تضيفى عذابك إلى عذابه جل شأنه !

فاستطردت تقول :

ـ اننى أوافقك على ما تقولين يا ايلين بصفة عامة .. ولكن
اى عذاب ذلك الذى يصيب هيثكليف ويرضينى ، إذا لم تكن
لى يد فيه ؟.. اننى كنت أرجو أن تقل آلامه ، لو أننى كنت
التى سببتها ، وكان هو يعرف اننى سببها .. آه !.. اننى
مدينة له بالكثير !.. واننى لخليقة بأن آمل ان اصفح عنه ،
بشرط واحد فقط .. ذلك أن أجزيه عينا بعين وسنا بسن ،
وكل عصرة من الالم عصرة مثلها ، حتى اهبط به إلى مستواى !
.. وإذ كان هو البادىء بالعدوان والإساءة ، فدعيه يكن
البادىء باستجداء الصفح ، وعندئذ .. عندئذ فقط يا ايلين
يمكن أن اظهر لك شيئا من الكرم .. ولكن من المحال قطعا
ان أستطيع الانتقام لنفسى ، ولذلك فاننى لن أستطيع الصفح
عنه ..

ثم اردفت تتابع الحديث :

طلب هندلى بعض الماء ، فناولته الكوب ، ثم سألته عن
حالته ، فقال :

ـ لست مريضا بالقدر الذى كنت اوده .. وبغض النظر
عن آلام ذراعى ، فإن كل قيراط من بدنى يخزنى ويؤلمنى كأنما
كنت أحارب فرقة من العفاريت ..

فكانت ملاحظتى التالية أن قلت :

ـ نعم .. ولا عجب !.. لقد اعتادت كاثرين أن تزهو بأنها
تقف بينك وبين اى أذى جسمانى .. وكانت تعنى أن أحد
الناس لن يجرؤ على إيذائك ، حتى لا يسىء إليها .. والآن
تأكدت أن الناس لا يقومون حقيقة من قبورهم ، وإلا كان من
الممكن أن تشهد كاثرين ليلة الأمس منظرا كريها منفرا ..
الست تحس بالكدمات والقطوع فى صدرك وكتفيك ؟..

ـ لست أدرى تماما .. ولكن ماذا تعنين ؟ .. هل اجترأ
على ضربى بينما كنت طريحا على الأرض ؟..

فهمست قائلة :

ـ كان يركلك ويدوسك بقدميه ويضرب راسك بالبلاط ،
وكان اللعاب يسيل من فمه شوقا إلى تمزيقك بأنيابه .. لأنه
ليس إلا نصف إنسان ، واما باقيه فشيطان رجيم ..

فتطلع مستر ايرنشو بأنظاره إلى أعلى محملقا ، مثلى ، فى
وجه عدونا المشترك الذى كان مستغرقا فى همومه وآلامه
بحيث كان يبدو غافلا عن كل ما يدور حوله .. وكان كلما طال
وقوفه ، كلما ازداد انطباع أفكاره السوداء على أساريره
وضوحا ..

فتاوه هندلى ، وتلوى فى مقعده وهو يهم بالنهوض ، وكأنه
لا يستطيع صبرا ، وقال :

ـ آه !.. لو أن الله يهبنى من القوة القدر الذى يكفى لأن

اختنقه بيدى وانا فى النـزع الأخير ، لدخلت الجحيم راضيا مسرورا !

ولكنه غاص فى مقعده ثانية ، وقد تملكه اليأس ، بعد ما تبين قصوره عن النضال .. بينما كنت اقول بصوت مرتفع :

ــ لا .. لا .. فيكفى انه قتل واحدا منكم .. ان كل إنسان فى « الجرانج » يعرف أن شقيقتك كانت خليقة بالبقاء على قيد الحياة الآن ، لولا مستر هيثكليف .. وهكذا فان الافضل للمرء ان يكون محل بغضه وكراهيته من أن يكون موضع حبه وهيامه .. واننى كلما ذكرت كيف كانت السعادة تحلق فوقنا جميعا ، وكيف كانت كاثرين سعيدة هانئة قبل مقدمه ، أرانى ألعن ذلك اليوم من كل قلبى ..

واغلب الظن ان هيثكليف أدرك ما فى هذا القول من الصدق، اكثر من إدراكه ما كان يعتمل فى قلب الشخص الذى نطق به .. فقد ثار انتباهه لكلماتى ، كما رأيت ، إذ اخذت عيناه تمطران الدموع بين أهدابهما ، وراح يلتقط انفاسه فى أنات مختنقة .. فرحت أحملق النظر إليه مواجهة ، ثم ضحكت ساخرة .. فانطلقت نحوى من نافذتى جهنم الغائمتين نظرات نارية لم تدم اكثر من لحظة .. ولكن الشيطان الذى كان يطل منهما عادة كان كامدا ، غريقا ، بحيث لم يخالجنى الخوف لحظة من المجازفة بضحكة ساخرة أخرى ..

فقال الثاكل المحزون :

ــ قومى ، واغربى عن ناظرى ..

وقد فهمت كلماته من قبيل الحدس والتخمين ، إذ كان صوته مختنقا لا يكاد يبين منه لفظ أو حرف .. فأجبته :

ــ أرجو المعذرة !.. ولكنى كنت أحب كاثرين أيضا .. وها هو ذا شقيقها يحتاج إلى العناية التى سوف أقدمها له ، إكراما لذكراها .. أما وقد ماتت الآن ، فانى اراها فى هندلى .. ان عينيه تشبهان عينيها تماما ، لولا محاولاتك فى جعلهما بارزتين مجللتين بالسواد والحمرة !.. كما انها ..

فصاح قائلا :

ــ انهضى أيتها التعسة الحمقاء ، قبل أن أسحقك حتى اقضى عليك ..

ثم هم بحركة جعلتنى أتحرك فى مكانى بدورى ، ولكنى اردفت ، قائلة ، وقد اعددت نفسى للفرار :

ــ ولكن لو ان كاثرين المسكينة كانت قد وثقت بك ورضيت ان تتخذ لنفسها ذلك اللقب المضحك الحقير المزرى ، لقب « مسز هيثكليف » ، لغدت وشيكا فى مثل هذه الصورة الأليمة .. انها ــ هى ــ ما كانت لتحتمل مسلكك الفظيع فى سكون وهدوء ، ولوجد بغضها واشمئزازها متنفسا ..

وكان ظهر المقعد المرتفع ، وشخص ايرنشو ، يحولان بينه وبينى .. وهكذا فانه بدلا من ان يحاول الانقضاض على ، اختطف سكينا من فوق المائدة ، وقذف بها رأسى ، فأصابتنى تحت أذنى ، واوقفت العبارة التى كنت على وشك ان انطق بها .. ولكنى انتزعتها ، ووثبت نحو الباب ، ثم ألقيت إليه

بعبارة أخرى أحسبها كانت أشد عمقا فى نفسه من قذيفته التى رمانى بها !.. وكانت آخر لمحة رايتها منه ، انه اندفع نحوى فى وحشية ، ولكن حال بينه وبين ملاحقتى أن مضيفه قام فاحتضنه ثم سقط الاثنان متماسكين بجوار المدفأة .. وفى أثناء فرارى من المطبخ ، طلبت إلى جوزيف أن يدرك سيده ، وتعثرت فى هيرتون الذى كان يدلى جروا رضيعا من فوق ظهر المقعد فى مدخل المطبخ .. وفى سعادة الروح التى افلتت من يوم الحساب ، انطلقت أقفز واثب واطير طيرانا فى الطريق المنحدرة ، ثم ما لبثت أن تركت منحنياتها ومضيت اخترق البرارى راسا ، فاتدحرج فوق الشطآن ، واخوض خلال المستنقعات ، واستحث خطاى نحو « الجرانج » الذى اتخذت منه منارا يهدينى سواء السبيل .. واننى لأفضل الف مرة أن يحكم على بالسكنى الأبدية فى تلك المناطق الجهنمية ، من أن أقضى ولو ليلة واحدة تحت سقف « مرتفعات ويذرنج » ثانية ..

وكفت ايزابيلا عن الكلام ، واخذت رشفة من الشاى ، ثم نهضت وطلبت إلى أن أعاونها فى ارتداء قبعتها والتدثر بشال كبير أحضرته لها ، وقد أعارت توسلاتى لها بالبقاء ساعة أخرى أذنا صماء ، ثم ارتقت مقعدا فقبلت صورة كاثرين وصورة ادجار ، ومنحتنى قبلة أخرى ، وأسرعت إلى العربة وفى صحبتها كلبها « فانى » الذى كان ينبح فى فرح شديد لاستعادة سيدته .. وانطلقت بها العربة ، فلم تضع قدمها فى تلك الأنحاء بعد ذلك قط .. ولكن نشأ بينها وبين سيدى

تراسل منتظم بعد ان ازدادت الأمور استقرارا .. واعتقد انها اتخذت مقرها الجديد فى الجنوب ، بالقرب من لندن .. وهناك وضعت غلاما ، بعد بضعة شهور من فرارها ، أسمته « لينتون » ، وقالت إنه كان منذ مولده عليلا هزيلا شكسا ..

وقابلنى مستر هيثكليف فى القرية ذات يوم ، وسألنى عن المكان الذى نقيم فيه ، فرفضت أن أخبره به .. فقال ان الأمر ليس بذى أهمية لديه ، ولكن عليها ان تحذر الحضور للاقامة مع أخيها .. وليقم بالانفاق عليها إذا شاء ، ولكن على الا تساكنه أو تقيم معه .. ومع أننى أبيت الادلاء إليه بأية معلومات ، فقد اكتشف ، عن طريق بعض الخدم الآخرين ، المكان الذى تقيم فيه ، ومولد الطفل ايضا .. ولكنه مع ذلك لم يقدم على إزعاجها أو ملاحقتها .. وهو إحجام احسبها تحمد له بواعثه وهى نفوره منها وكراهيته لها .. وكان غالبا ما يسألنى عن الغلام ، كلما رآنى .. ولما سمع اسمه ابتسم فى عبوس وقال معقبا :

— انهم يريدون أن أكرهه ايضا .. أليس كذلك ؟ ..

— بل لا أحسبهم يريدون أن تعرف عنه شيئا البتة ..

— ولكن سوف آخذه ، عندما اريد .. وليكونوا من ذلك على يقين ..

ومن حسن الحظ أن امه قضت نحبها قبل أن يحين ذلك الوقت .. وكان ذلك بعد وفاة كاثرين بثلاثة عشر عاما ، عندما كان لينتون الصغير فى الثانية عشرة من عمره ، أو أكثر قليلا ..

***

لم تتح لى اية فرصة للتحدث إلى سيدى غداة زيارة ايزابيلا غير المتوقعة .. فقد كان عزوفا عن الحديث لا تسمح له حالته بمناقشة أى موضوع .. فلما استطعت أن أحمله على الإصغاء رأيت أن فراق شقيقته لزوجها قد سره كثيراً ، إذ كان يمقت هيثكليف مقتا شديدا بلغ من الغزارة ما لم أكن أحسب أن اعتدال طبيعته يسمح به .. كان نفوره واشمئزازه من العمق والحساسية بحيث كان يتجنب الذهاب إلى أى مكان يحتمل أن يراه فيه أو يسمع عنه .. ولهذا السبب ، فضلا عن حزنه العميق ، تحول أدجار إلى ناسك يعتزل الناس والعالم .. فتخلى عن وظيفته القضائية ، وامتنع حتى عن الذهاب إلى الكنيسة ، وتجنب زيارة القرية فى جميع المناسبات ، وراح يمضى حياته فى عزلة تامة داخل حدود بستانه وضياعه ، لا يتجاوزها إلا فى جولة يقوم بها وحيدا بين البرارى ، أو زيارة يؤديها لقبر زوجته ، معظمها فى المساء أو الصباح الباكر قبل أن يخرج غيره من المارة من ديارهم ..

ولكنه كان من الطيبة والتدين بحيث لم يقم على الاستسلام للشقاء طويلا .. لم يكن ــ كما فعل الآخر ــ يدعو روح كاثرين إلى ملازمته وارتياده ! وساهم الزمن فى جعله يذعن للقضاء ، وكساه طابعا من الكآبة أحلى من المرح المألوف !.. وكان يستعيد ذكراها فى حب وحنان عميقين ، وفى الدعاء لها بالتنعم بعالم أفضل ، لم يكن يشك البتة فى ذهابها إليه ! .. ولكن كان له عزاؤه وعواطفه الدنيوية أيضا .. فقد مكث

أياما حسبته خلالها لا يهتم على الاطلاق بالنبتة الصغيرة التى خلفتها الراحلة .. ولكن جموده ما لبث أن ذاب بأسرع مما تذوب الثلوج فى شهر أبريل ، حتى أنه قبل أن تستطيع الصغيرة أن تنطق بكلمة أو تحبو خطوة ، كانت تحتل فى قلبه عرشا مكينا .. وسماها كاثرين ، ولكنه لم يكن يدعوها بهذا الأسم كاملا قط ، كما لم يكن يدعو كاثرين الأولى باسمها المصغر قط .. ربما لأن هيثكليف اعتاد أن يدعوها به .. كانت الصغيرة تسمى « كاثى » دائما .. وكان له فى ذلك ما يميزها عن أمها ، وما يربطها بها فى الوقت نفسه .. وكان تعلقه بها ينبثق من صلتها بأمها أكثر مما ينبعث من أبوته لها ..

وقد اعتدت أن أقارن بينه وبين هندلى ايرنشو ، وأكدح فكرى ، فى حيرة ودهشة ، للوصول إلى تفسير يقنعنى لما بدا من تناقض مسلكهما إلى هذا الحد ، فى ظروف متماثلة تماما .. كان كلاهما زوجا شديد الولع بزوجته ، غزير العاطفة نحو طفله ، ومن ثم لم يكن بوسعى أن افهم كيف لا يسلك كلاهما طريقا واحدة ، سواء أكانت نحو الخير أم نحو الشر .. ولكن هندلى ــ كما قلت لنفسى ــ وقد كان أقواهما مراسا وأكبرهما عقلا ، قد اثبت أنه أسوأ الاثنين واضعفهما .. فعندما ارتطمت سفينته ، هجر الربان مركزه ، فاندفع البحارة نحو التمرد والفوضى ، بدلا من أن يحاولوا إنقاذ سفينتهم المنكودة ، ولم يدعوا لها ذرة من الأمل فى النجاة .. وعلى العكس من ذلك ، أظهر لينتون تلك الشجاعة الحقة التى تتميز بها النفس المؤمنة المخلصة .. كان يؤمن بالله ويثق به ،

فوهبه الله الراحة والسكينة .. غدا أحدهما معقلا للأمل ، والآخر فريسة لليأس .. اختار كل منهما نصيبه ، فقدر عليه أن يحتمله بحق .. ولكنك لا تريد أن تسمع منى هذا النقد الأخلاقى يا مستر لو كوود .. وتود أن تحكم بنفسك ـ مثلما استطعت ان افعل ـ على كل هذه الأشياء .. أو هذا على الأقل ما سوف تظن أنك فاعله .. والأمر بعد ذلك سواء .

وجاءت نهاية ايرنشو مثلما كان يمكن للمرء أن يتوقعها .. وقد أعقبت وفاة شقيقته سريعا ، لا يكاد يفصل بينهما أكثر من ستة شهور .. ولم نكن فى « الجرانج » نعرف اقل شىء عن حالته قبل موته ، فكل ما استطعت أن أعرفه إنما سمعت به عند ما ذهبت للمساعدة فى معدات الجنازة .. فقد حضر مستر كينيث ليبلغ النبأ إلى سيدى ، فى صباح أحد الأيام ، وكان الوقت مبكرا ، فلم يشأ أن يصدمنى بذكر الأنباء السيئة مباشرة ، وإنما قال لى وهو يدخل راكبا جواده فى الفناء :

ـ حسنا يا نللى !.. إنه الآن دورك ودورى فى ارتداء ثياب الحداد .. فمن تظنينه قد غاب عنا اليوم ؟..

فسألته فى لهفة شديدة : من ؟..

فقال وهو يترجل ويعلق عنان الجواد فى الخطاف بجوار الباب :

ـ لماذا ؟.. عليك أن تحدسى بنفسك .. ثم عليك أن ترفعى طرف مرولتك ، فانى واثق من انك ستحتاجين إليها ..

فصحت قائلة :

ـ إنه ـ يقينا ـ ليس مستر هيثكليف ؟..

فقال الطبيب :

ـ ماذا ؟.. وهل كنت تجدين دموعا تذرفينها عليه ؟ .. كلا .. فهيثكليف شاب متين الجسم قوى البنية .. وهو يبدو مشرقا ناضرا اليوم ، فقد رأيته للتو .. وقد بدأ جسمه يمتلىء باللحم سريعا منذ ان ضاع نصفه الحلو ..

فعدت اهتف فى صبر نافد :

ـ من إذن يا مستر كينيث ؟..

ـ هندلى ايرنشو .. صديقك القديم هندلى ، وصاحبى التعس المنكود ، ولو أنه كان شديد الضراوة معى فى هذه الآونة الطويلة الأخيرة .. آه !.. لقد قلت اننا سوف نفجر الماء من العيون !.. ولكن لا .. دعى عنك البكاء .. فقد مات مخلصا لخلقه ومبادئه !.. مات ثملا كأحد اللوردات !.. آه ! .. يا للفتى المسكين !.. اننى حزين من أجله كذلك .. فالمرء لا يملك إلا أن يحزن لفقد رفيق قديم ، ولو أنه كان ينطوى على أسوأ الصفات التى لا يتخيلها إنسان ، وفعل معى الكثير من أنواع الخداع الدنيئة !.. ويبدو أنه لم يتجاوز السابعة والعشرين من عمره ، أى فى مثل سنك تماما .. فمنذا الذى كان يظن أنكما ولدتما فى سنة واحدة ؟..

واعترف أن تلك اللطمة كانت أشد وقعا على نفسى من صدمة وفاة مسز لينتون .. وبدأت ذكريات أيامنا القديمة تطوف بقلبى ، فجلست فى الشرفة ، ومضيت أبكى بحرقة كأنما أبكى قريبا تربطنى به صلة الدم ، راغبة إلى مستر كينيث أن يدعو خادما أخرى لتقوده إلى السيد .. ولم يكن فى

وسعى أن أمنع نفسى من إمعان الفكر فى هذا السؤال : « أتراه لقى معاملة كريمة لائقة ؟.. » فاننى مهما فعلت ، فان هــذه الفكرة سوف تظل تلاحقنى وتنغص عيشى .. وقد كانت من الالحاح المضنى بحيث عزمت على أن التمس الإذن لى بالذهاب إلى « مرتفعات ويذرنج » ، لأساهم فى أداء الواجب الأخــير نحو الفقيد .. وكان مستر لينتون ، فى بادىء الأمر ، يأبى كل الإباء أن يســمح لى بذلك ، ولــكنى رحت ادافع فى حــرارة وذلاقة لسان عن الحال التى يرقــد فيها هندلى مجردا عن الأصدقاء والأحبــة ، وقلت ان لســيدى القــديم وأخى فى الرضاعة ، من الحقــوق فى خــدماتى ما لا يقل عن حقــوق مستر لينتون نفســه .. وفضــلا عن ذلك فقــد ذكرته بأن هيرتون الطفل هو ابن شقيق زوجته ، وأن من واجبه ، وهو أقرب الناس إليه الآن ، أن يكون حاميه وحارســه .. وقلت إنه ينبغى له ، بل يجب عليه ، أن يتحرى عن الحــالة التى تركت بها أملاكَ شقيق زوجته ، وأن ينظر فى رعاية مصــالحه .. ولكنه كان وقتئذ فى حالة لا تسمح له بمباشرة مثل هــذه الشئون ، فأمرنى بأن أتكلم فى ذلك مع محاميه ، ثم سمح لى بالذهاب .. وكان محاميه هو محامى مستر ايرنشو فى الوقت نفســه ، فذهبت إلى زيارته فى القرية ، وسألته أن يصــحبنى .. ولكنه هز رأسه سلبا ، ونصح لى بأن ندع مستر هيثكليف وشأنه ، مؤكدا انه لو عرفت الحقيقة ، فسيتبين أن هيرتون قد ترك أدنى إلى المعدمين والشحاذين .. ثم أردف قائلا :

ــ لقد مات أبوه غارقا فى الدين ، بعد أن رهن كل ما يملكه .. والأمل الوحيد أمام الوريث الطبيعى الآن ، هو أن نتيح له

الفرصة لكى يخلق فى قلب الدائن شيئا من الاهتمام به بحيث يميل إلى معاملته بنوع من الرفق والتسامح .

فلما بلغت « مرتفعات ويذرنج » ، أوضحت أننى جئت كى اشارك فى عمل الترتيبات اللائقة بالفقيد .. وقد أعرب جوزيف عن ارتياحه لحضورى ، وكان يبدو فى حزن عميق .. أما هيثكليف فقد قال إنه لا يرى ثمة ما يحتاج لوجودى ، ولكن فى وســعى أن ابقى ، وأن آمر بما أراه نحو معــدات الجنازة ، إذا رغبت فى ذلك .. ثم عقب قائلا :

ــ إن الأصوب أن يدفن جثمــان هــذا المعتوه فى مفترق الطرق دون احتفال من أى نوع .. فقد حدث أن تركته عشر دقائق بعد ظهر الأمس ، فما كان منه فى هذه الفترة الوجيزة إلا أن أوصد أبواب المنزل فى وجهى ، ثم أمضى الليل بطوله يشرب الخمر حتى قتل نفسه عن عمد .. وحطمنا البــاب فى الصباح ، إذ سمعناه يرسل نخيرا عاليا كالحصان فوجدناه ملقى فوق الأريكة ، غائبا عن الصواب ، لا يفيق ولو سلخنا جلده أو شققنا رأسه ! .. وأرسلت فى طلب كينيث ، فلم يحضر إلا وقد تحول هــذا البهيم إلى رمة ! .. كان ميتا ، باردا ، متيبسا .. وهكذا ترين انه كان من العبث أن نحدث مزيدا من الضجة بسببه ..

وأيد الخادم الشيخ هذه الرواية ، ولكنه غمغم يقول :

ــ كنت أفضل أن يذهب فى طلب الطبيب بنفسه ، فاننى كنت خليقا بأن أعنى بالسيد خيرا منه .. ثم انه لم يكن قــد مات عند ذهابى .. لا شىء من ذلك البتة !

واصررت على أن تشيع جنازته بما يليق به من احترام ، فقال مستر هيثكليف إنه يدع لى التصرف فى هـذا الأمر كما أشاء أيضا ، ولكنه يود أن يذكرنى بأن المال الذى سينفق على الجنازة إنما سيخرج من جيبه هو !.. وكان يبدو جامدا ، فى غير مبالاة ، لا ينم مظهره عن حزن أو فرح .. وإن دل على شىء البتة ، فإنما يدل على رضى صارم ، كما يرضى المرء عندما ينتهى بنجاح من مهمة شاقة .. بل لقد لاحظت مرة فى الواقع شيئا يشبه الابتهاج فى مظهره ، وكان ذلك على وجه التحديد عندما حمل النعش إلى خارج المنزل .. ومع ذلك فقد كان من النفاق بحيث ارتدى ثياب الحداد عند تشييع الجنازة .. وقبل أن يغادر المنزل مع هيرتون ، حمل الغلام المنكود ووضعه فوق إحدى الموائد ، ثم غمغم يقول له فى تلذذ غريب : « والآن يا صغيرى العزيز ، لقد أصبحت لى وحدى ، وسوف نرى إن كانت الشجرة لن تشب معوجة كالشجرة الأخرى ، ما دامت الريح التى تهب عليهما وتثنيهما واحدة ! » .. وسر الطفل البرىء لهذا الحديث الذى لم يفقه منه شيئا ، وراح يعبث بسوالف هيثكليف ويربت على خده .. ولكنى تكهنت بالمعنى الذى يرمى إليه ، فقلت فى مرارة :

ــ إن هذا الصبى يجب أن يعود معى إلى « ثرشكروس جرانج » يا سيدى ، فهو آخر شىء فى العالم يمكن أن يصبح لك!

فسألنى فى اهتمام : وهل قال لينتون ذلك ؟

ــ بلا شك .. لقد أمرنى أن أعود به معى ..

فقال الوغد :

ــ حسنا .. إننا لن نناقش هذا الأمر الآن .. ولكن بى

ميلا إلى أن أربى غلاما صغيرا ، فبلغى سيدك أنه إذا حاول أخذ هذا الصبى ، فلا بد لى من أن أحل ابنى محله .. ولست أتعهـد بترك هيرتون يذهب دون أن أنازع حق سـيدك فى أخذه ، أما الآخر فانى واثق من إحضاره حتما .. فلا تنسى أن تبلغيه ذلك ..

وكان هذا التلميح كافيا لغل يدى .. فلما عدت أخبرت سيدى بما قال ، ولما كان ادجار لينتون قليل الاكتراث للأمر منذ البداية ، فإنه لم يتكلم عن التدخل فى الأمر بعد ذلك قط .. ولست أعتقد أنه كان قادرا على عمل شىء ، حتى ولو كان راغبا فى ذلك ..

وهكذا أصبح الضيف سيد « مرتفعات ويذرنج » الآن ، حيث استولى عليها بيد من حديد ، وأثبت للمحامى ــ الذى أثبت ذلك لمستر لينتون بدوره ــ أن ايرنشو قد رهن كل شبر من الأراضى التى كان يملكها ليحصل على المال الذى يشبع به جنونه بالمقامرة .. وكان هيثكليف نفسه هو المرتهن ..

وعلى هـذا النحو أصبح هيرتون ــ الذى كان ينبغى أن يكون الآن السيد الأول فى المنطقة ــ خالى الوفاض لا يملك شيئا ، ويعتمد اعتمادا كليا على عدو أبيه اللدود ، ويعيش فى منزل أسرته كأحد الخدم ــ وإن كان محروما من ميزة الأجر الذى يتقاضاه الخدم ! ــ وهو عاجز عن استعادة حقوقه ، لأنه محروم من الأصدقاء والأنصار ، ولأنه يجهل كيف كان ضحية الغدر والخيانة ..



* * *

الفصل الثامن عشر

وتابعت مسز دين قصتها فقالت :

كانت الأعوام الاثنا عشر التى تلت تلك الفترة المشئومة ، أسعد أيام حياتى ، فكان أعظم ما لقيته فيها من متاعب ناشئا من تلك الأمراض الطفيفة التى كانت تنتاب أحيانا سيدتنا الصغيرة ، مثلما تصيب جميع الأطفال يستوى فى ذلك الغنى منهم والفقير .. وفيما عدا ذلك فإنها بعد أن أجتازت الشهور الستة الأولى ، نشأت كالشجرة الباسقة ، واستطاعت أن تمشى وأن تتكلم على طريقتها الخاصة ، قبل أن يزهر العشب مرة أخرى حول قبر مسز لينتون ، اى قبل أن يمر عام على وفاتها .. كانت أكثر « الأشياء » استمالة للقلب واقدر من استطاع ، فى يوم من الأيام ، ان يجلب شعاعا من الشمس إلى المنزل الموحش !

كان محياها آية من آيات الجمال ، فقد ورثت عيون آل ايرنشو السوداء الساحرة ، وورثت من آل لينتون بشرتهم الناصعة البياض ، وملامحهم الدقيقة ، وشعرهم الأشقر المجعد .. وكانت روحها عالية ، فى غير خشونة .. وتميزت بقلب شديد الحساسية والحيوية إلى حد الإفراط فى عواطفه .. وكنت كلما رأيت فيها ذلك الاستعداد للتعلق الشديد بما تهواه ، اذكر أمها .. ومع ذلك فلم تكن تشبهها ، لأنها كانت قادرة على أن تكون وديعة رقيقة كالحمامة ، كما كان لها صوت عذب

جميل ، ومحيا ترتسم فيه علائم التفكير والانشغال .. لم يكن غضبها ثائرا جموحا ، ولم يكن حبها ضاريا عنيفا ، وإنما كان عميقا حنونا .. ومع ذلك فلا بد من الاعتراف بأنه كانت لها أخطاء تشين مزاياها .. من ذلك ميلها إلى الشقاوة ! .. بل وكانت لها إرادة عنيدة كتلك التى يكتسبها الأطفال المدللون سواء اكانوا مسالمين بطبعهم أم مشاكسين .. فلو صادف أن غاظها أحد الخدم فإنها لا تزيد على القول دائما : « سوف أخبر بابا ! .. » .. أما إذا لامها والدها ، ولو بنظرة واحدة ، فإنك تخاله أصابها بما يحطم القلوب ! .. ولست أعتقد أنه خاطبها يوما من الأيام بكلمة خشنة أو عبارة قاسية ..

وقد أخذ على عاتقه أمر تعليمها وتثقيفها بنفسه ، وجعل من ذلك مسلاة له .. ومن حسن الحظ أن سرعة قريحتها وميلها إلى العلم ، فى شغف وفضول ، قد جعلا منها تلميذة مجدة ناجحة .. وكانت تدرس فى سرعة ونهم ، وتلتهم الدروس التهاما اثلج قلب والدها وجزى تعبه فى تعليمها خير الجزاء ..

ولم تكن حتى الثالثة عشرة من عمرها قد خرجت إلى ما وراء حدود البستان وحدها .. كان مستر لينتون ربما صحبها إلى خارج البستان ميلا أو ميلين ، فى مرات نادرة .. ولكنه لم يكن يأمن أن يعهد بها إلى أحد سواه .. كان اسم القرية « جيمرتون » لفظا لا قيمة له ولا معنى فى أذنيها .. وكانت الكنيسة هى المبنى الوحيد الذى أجتازت عتبته ، فيما عدا منزلها .. أما « مرتفعات ويذرنج » و « مستر هيثكليف »

فلم يكن لهما وجود بالنسبة إليها .. كانت تعيش فى عزلة تامة ، وكانت فيما يبدو قانعة بذلك راضية تماما .. واقول « فيما يبدو » لأنها كانت أحيانا كلما سرحت بأنظارها ، من نافذة حجرة العابها ، فى المناظر البعيدة تقول فى تردد :

ـ كم ينبغى ان ينقضى من الوقت يا ايلين قبل أن استطيع السير إلى قمم هذه التلال ؟ .. شد ما اعجب ما الذى يقع فى الناحية الأخرى منها .. هل هو البحر ؟ .

فكنت أقول :

ـ كلا يا مس كاثى .. بل تلال أخرى شبيهة بهذه تماما ..

وسألتنى مرة :

ـ ترى كيف يكون منظر هذه الصخور الذهبية إذا وقفت تحتها ؟ .

وكان السفح الشديد الانحدار لصخرة « بنستون كراجز » يلفت نظرها بصفة خاصة ، ولا سيما عندما تتألق فوقه اشعة الشمس الغاربة ، بينما تلف الظلال سائر قمم التلال والأراضى المجاورة لها .. فقلت لها إنها مجرد كتل من الحجر والصخور الصلدة التى لا تحوى شيئا من التربة يصلح لإنبات شجرة واحدة ..

فتابعت أسئلتها فى إلحاح :

ـ ولماذا تظل مضيئة وقتا طويلا بينما يخيم الظلام هنا ؟ .

ـ لأنها مرتفعة ارتفاعا عظيما عن مكاننا هذا .. كما أنه ليس فى استطاعتك ان تتسلقيها ، فهى شديدة الارتفاع

شديدة الانحدار ، والثلوج تعلوها فى الشتاء قبل أن تصل إلينا .. بل لقد وجدت الثلوج مرة ، فى أواسط الصيف ، تحت ذلك التجويف الأسود الذى ترينه فى الجانب الشمالى الشرقى !

عندئذ صاحت فى جذل :

ـ آه ! .. هل ذهبت إلى هناك إذن ؟ .. سوف أستطيع الذهاب بدورى إذن عندما ابلغ مبلغ النساء ! .. وهل ذهب ابى إلى هناك يا ايلين ؟ ..

فسارعت إلى الإجابة قائلة :

ـ سوف يخبرك أبوك يا آنستى ، انها لا تستحق عناء الزيارة .. إن البرارى التى تتجولين معه فيها ، أعظم منها جمالا وروعة ، كما أن « بستان ثرشكروس » هو أجمل مكان فى العالم ..

فغمغمت كأنما تحدث نفسها :

ـ ولكنى أعرف البستان ولا اعرف هذه التلال ! .. ولسوف يبهجنى أن اقف فوق تلك القمة العالية واجيل أنظارى فيما يحيط بى ! .. سوف يأخذنى مهرى الصغير « مينى » إلى هناك يوما من الأيام !

وذكرت إحدى الوصيفات أمامها مرة اسم « كهف الحوريات » فدار ذكره راسها بالرغبة فى تنفيذ هذا المشروع ، وكانت لا تفتأ تكدر صفو والدها بالحديث عنه ، فكان يعدها بأن تقوم بهذه الرحلة عندما تتقدم فى العمر .. ولكن مس كاثرين

كانت تقيس عمرها بالشهور ، فكان السؤال الذى لا يبارح شفتيها : « والآن ، هل كبرت بما يكفى لذهابى إلى بنستون كراجز ؟ .. » ولكن الطريق إلى هناك كان يدور ملاصقا « لمرتفعات ويذرنج » ، ولم يكن ادجار يميل إلى المرور بها ، وهكذا كانت تتلقى دائما هذه الإجابة : « كلا يا حبيبتى ! .. لم يحن الوقت بعد ! » .

قلت ان مسز هيثكليف عاشت أكثر من اثنى عشر عاما بعد ان هجرت زوجها ، وأضيف أن أفراد أسرتها كانوا جميعا ضعاف البنية ، فكانت تنقصها ، كما تنقص ادجار ، تلك الصحة اليانعة التى تلقاها عادة فى أهل هذه المنطقة .. ولست أدرى عن يقين ماذا كان مرضها الأخير ، ولكنى أحسب أنها وأخاها قد ماتا بمرض واحد ، هو نوع من الحمى بطيئة الظهور فى بدايتها ، ولكنها غير قابلة للشفاء ، وتلتهم الحياة سريعا فى النهاية .. وقد كتبت إلى أخيها لتخبره بقرب نهايتها بعد مرض ألزمها الفراش أربعة شهور متوالية ، ورجته أن يذهب إليها ، إذا استطاع ، لأن لديها الكثير من الأمور التى تريد تسويتها ، ولأنها تريد أن تودعه الوداع الأخير ، وتعهد إليه بلينتون الصغير آمنة مطمئنة .. وكانت ترجو أن يترك هيثكليف لينتون مع خاله ، كما كان معها ، وتجد سرورا فى إقناع نفسها بأن أباه كان عزوفا عن الاضطلاع بإعالته أو تعليمه .. فلم يتردد سيدى لحظة واحدة فى الاستجابة لرجائها .. وعلى الرغم من نفوره من مغادرة منزله فى الزيارات العادية ، كما كان عهده فى الآونة الأخيرة فإنه سارع إلى تلبية تلك الدعوة ،

وعهد بكاثرين إلى عنايتى الساهرة أثناء غيابه ، وأصدر لى أوامره المشددة بألا أدعها تجوب خارج البستان ، ولو فى صحبتى .. أما خروجها وحدها فأمر لم يخطر له على بال .

وطالت غيبته ثلاثة أسابيع .. ففى اليومين الأولين كانت الصغيرة المعهود بها لعنايتى تجلس فى ركن المكتبة وقد منعها الحزن من القراءة أو اللعب ، وهكذا لم تسبب لى إلا القليل من المتاعب وهى فى هذه الحالة من الهدوء والسكينة .. ثم تلت ذلك فترة من الملل المصحوب بضيق الصدر والمشاكسة .. وإذ كنت كثيرة المشاغل ، وقد تقدم بى العمر ، وليس فى وسعى أن أجاريها فى القفز والجرى والصعود والهبوط لتسليتها ، فقد استنبطت طريقة تستطيع بها أن تسلى نفسها بنفسها .. وذلك بأن أبعث بها لتقوم بالتجوال وحدها داخل حدود المزرعة ، سيرا على الأقدام تارة وراكبة مهرها الصغير تارة أخرى ، ثم أتملقها بالإصغاء فى صبر وأناة إلى قصص مغامراتها الحقيقية والخيالية ، عندما تعود من جولاتها ..

كان الصيف مشرقا بكل روعته وبهجته ، فكانت تجد متعة كبيرة فى هذه النزهات الانفرادية ، بحيث كانت كثيرا ما تبقى خارج الدار من وقت الإفطار حتى موعد الشاى بعد الظهر ، ثم تقضى أمسياتها فى رواية قصصها الخيالية المثيرة .. ولم أكن أخشى أن تخترق الحدود المرسومة لها ، لأن البوابات كانت عادة محكمة الغلق ، ولأنى حسبتها لا تجرؤ على اجتيازها والتوغل خارجها وحدها لو أنها كانت مفتوحة على مصراعيها ..



ثم انطلقت تعدو بالجواد وهى تطلق ضحكة مرحة ، وتسخر من نصائحى وتحذيراتى بتجنب الاسراع فى السير .

ولكنى سرعان ما تبينت ـ لسوء الحظ ـ أن ثقتى لم تكن فى موضعها .. فقد حضرت لى كاثرين ذات صباح ، فى الساعة الثامنة ، وقالت إنها سوف تكون اليوم تاجرا عربيا يعبر الصحراء بقافلته ، وأن على أن أوفر لها المزيد من المؤن لنفسها ولسائر أعضاء القافلة من الدواب ، وهى حصانها وثلاثة « جمال » ممثلة فى كلب سلوقى كبير واثنين من كلاب الصيد .. فأعددت لها كمية وفيرة من الفطائر والحلوى وجمعتها فى سلة علقتها على أحد جانبى سرج الحصان ، وعندئذ اعتلت ظهره فى خفة ومرح ، وقد ارتدت قبعتها ذات الحافة العريضة والنقاب الحريرى الخفيف ليحميا رأسها ووجهها من شمس يوليو القاسية ، ثم انطلقت تعدو بالجواد وهى تطلق ضحكة مرحة ، وتسخر من نصائحى وتحذيراتى بتجنب الإسراع فى السير ، والتبكير فى الحضور .. ولكن الخبيثة لم تظهر حتى موعد تناول الشاى ، ولم يعد من أفراد قافلتها سوى الكلب السلوقى إذ كان متقدما فى العمر مغرما بالراحة والاسترخاء .. أما كاثى والمهر وكلبا الصيد فلم يظهر لأى منهم أثر فى أى مكان .. وبعثت بالرسل يجوسون خلال الممرات فى البستان والمزارع ، وأخيرا مضيت للبحث عنها بنفسى .. والتقيت بعامل يشتغل فى إصلاح السياج حول أحد الحقول ، عند حدود مزرعتنا ، وسألته إن كان قد رأى سيدتنا الصغيرة ، فقال :

ـ لقد رأيتها فى الصباح حيث طلبت منى أن أقطع لها غصنا من شجرة البندق ، ثم وثبت بجوادها فوق السور عند

تلك البقعة التى ينخفض فيها أكثر من غيرها ، وأسرعت تعدو حتى اختفت عن الأنظار !

ولك أن تتصور مبلغ ما اعترانى من جزع لدى سماعى هذه الانباء ، وخطر لى على الفور أنها لا بد قد ذهبت إلى « صخور بنستون » التى كانت تتوق لرؤيتها عن كثب .. فهتفت أقول لنفسى : « ويلاه ! .. ماذا يكون مصيرها ؟ .. » ثم اندفعت خلال الثغرة التى كان العامل يصلحها فى السياج ، ومضيت قدما نحو الطريق ، أغذ السير كأننى فى سباق ، واقطع القفار ميلا بعد ميل ، حتى بلغت منحنى أرى عنده « مرتفعات ويذرنج » ، ولكنى لم أتبين أثرا لكاثرين من قرب أو من بعد .. وكانت « صخور بنستون » تقع على بعد ميل ونصف من مسكن مستر هيثكليف ، كما كان ذلك يبعد عن « الجرانج » بأربعة أميال ، وهكذا بدأت أخشى أن يهبط الظلام قبل أن أستطيع بلوغها ، ورحت أغمغم قائلة لنفسى : « وماذا يكون الحال لو كانت قد زلت قدمها فى أثناء تسلق الصخور ، فسقطت قتيلا ، أو كسرت بعض عظامها ؟ .. » والواقع أن جزعى كان أليما أشد الألم ، ولذلك غمرنى سرور الارتياح ــ بادىء ذى بدء ــ عندما كنت أسرع السير بجوار (المرتفعات) فإذا بى أرى « شارلى » أحد كلبى الصيد ، بل أشرسهما ، ملقى تحت إحدى النوافذ ، وقد ورم رأسه وأخذ الدم ينزف من أذنه .. ففتحت باب السور وأسرعت إلى المنزل ورحت أطرق بابه بقوة ولهفة ، وما لبث أن فتح عن امرأة كنت أعرفها ، كانت تعيش من قبل فى جيمرتون

والتحقت بالخدمة هنا على أثر وفاة مستر ايرنشو ، فما كادت ترانى حتى صاحت :

ــ آه ! .. هل أتيت للبحث عن سيدتك الصغيرة ؟ .. لا تخشى شيئا .. إنها هنا بخير وسلامة .. ولكنى مسرورة لأنه لم يكن السيد هو الذى يطرق الباب ..

فغمغمت مبهورة الأنفاس من المشى السريع واللهفة والقلق :

ــ إنه ليس فى المنزل إذن ؟

ــ كلا .. كلا .. لقد خرج هو وجوزيف ولا أحسبهما يعودان قبل ساعة أو تزيد .. ادخلى وارتاحى قليلا ..

فدخلت ، وإذا بى أرى حملى الشارد جالسة بجوار المدفأة ، تتأرجح فى مقعد صغير كان لأمها وهى صغيرة .. وكانت قبعتها معلقة فى مشجب على الجدار ، بينما كانت تبدو فى راحة واطمئنان كأنها فى بيتها ، وقد راحت تمرح وتتحدث فى طلاقة إلى هيرتون ــ الذى أصبح الآن شابا قويا فى الثامنة عشرة ــ وهى فى أحسن حالاتها النفسية .. وكان هيرتون يحملق بأنظاره إليها فى دهشة وفضول بالغين ، ولا يفقه إلا أقل القليل من ذلك الفيض المتتابع من الملاحظات والأسئلة التى كان لسانها الذلق لا يكف عن صبها فى أذنيه ..

وأخفيت فرحتى برؤيتها سالمة وراء قناع من الغضب والاستياء ، وصحت :

ــ مرحى .. مرحى .. يا آنسة ! .. سوف تكون هذه آخر مرة تركبين فيها جوادك ، حتى يعود أبوك من سفره ..

وما عدت اثق بك او اطمئن إلى اجتيازك عتبة الدار أيتها الفتاة الشقية !

فهتفت فى مرح وهى تثب من مجلسها وتسرع إلى جانبى :

ـ آه يا ايلين ! .. سوف تكون لدى قصة رائعة لأرويها لك الليلة ! .. ولكن اراك عثرت على ، فهل أتيت إلى هذا المنزل فى حياتك قبل الآن ؟

فتجاهلت سؤالها ، وقلت فى صرامة :

ـ ضعى قبعتك وهيا إلى المنزل على الفور .. وإننى شديدة الاستياء منك ، يا مس كاثى ، فقد أتيت خطأ جسيما .. ولا فائدة من العبوس أو البكاء ، فإن ذلك لن يجزى ما سببته لى من قلق وجزع بينما كنت أذرع المنطقة طولا وعرضا فى البحث عنك ! .. وكلما فكرت كيف عهد لى مستر لينتون بالمحافظة عليك ومنعك من الخروج من المزرعة ، وإذا بك تتسللين إلى الخارج على هذا النحو ، ازددت استياء من مسلكك .. وهذا يدل على أنك ثعلب صغير ماكر ، ولن يضع احد ثقته بكَ بعد ذلكَ قط !

وكانت قد بدأت فى النحيب ، فإذا بها تكف دفعة واحدة ، وتقول :

ـ ما الذى فعلته ؟ .. ان ابى لم يأمرنى بشىء .. كما أنه لن يؤنبنى يا ايلين ، فإنه لم يكن قط صارما قاسيا مثلك !

فعدت أقول :

ـ هيا .. هيا .. سوف أربط لك شريط القبعة .. والآن

دعينا من المشاكسة .. آه ! .. يا للعار ! .. أتكونين فى الثالثة عشرة ، وتتصرفين كطفلة صغيرة ؟

وقد فهت بهذه الملاحظة الأخيرة عندما دفعت القبعة عن رأسها وأسرعت تقف بجوار المدفاة بعيدا عن متناول يدى ..

وتدخلت الخادمة قائلة :

ـ رويدك ، ولا تكونى قاسية على الصبية الطيبة يا مسز دين !.. إننا نحن الذين جعلناها تتوقف هنا ، إذ كانت تتوق إلى المضى فى طريقها ، خشية أن تقلقى عليها .. وقد عرض عليها هيرتون أن يذهب معها ، واحسب انه كان ينبغى أن يرافقها ، لأن الطريق فوق التلال شديد الوعورة ..

وكان هيرتون فى أثناء هذا النقاش يقف واضعا يديه فى جيبى سراويله ، وقد استبد به الارتباك فلم يستطع النطق بكلمة واحدة ، وإن كان يبدو غير مرتاح إلى تطفلى !

واستطردت أقول غير مكترثة بتدخل المرأة :

ـ كم من الوقت يجب أن أنتظرها ؟ .. سوف يحل الظلام بعد عشر دقائق .. فأين مهرك يا مس كاثى ؟ .. وأين « فينكس » ؟ .. سوف أتركك وأمضى لشأنى ، ما لم تسرعى .. فافعلى ما يحلو لك !

ـ إن المهر فى الفناء .. اما فينكس فمحبوس هناك ، لأنه معضوض ، وكذلك شارلى .. وقد كنت على وشك أن أخبرك بكل شىء فى هذا الأمر ، ولكنك سيئة الخلق ، ولا تستحقين الاستماع إلى روايتى !

والتقطت القبعة من الأرض ، واقتربت منها لأضعها فوق رأسها ثانية ، ولكنها إذ رأت الشاب والخادمة ينحازان لصفها ، بدأت تقفز حول الحجرة بعيدا عنى .. وشرعت فى مطاردتها فإذا بها تجرى هنا وهناك كالجرذ فوق قطع الأثاث وتحتها وخلفها ، مما جعل استمرارى فى المطاردة مثيرا للسخرية ، فضحك هيرتون والخادمة ، وشاركتهما هى فى الضحك ، وأمعنت فى القحة حتى صحت أخيرا فى انفعال شديد :

ـ حسنا يا مس كاثى .. لو أنك عرفت منزل من هذا لكان يسرك أن تغادريه على الفور ..

فنظرت هى إلى هيرتون قائلة :

ـ إنه منزل أبيك ، أليس كذلك ؟

فلم ينطق إلا بكلمة « كلا » ، وقد أغضى بنظراته إلى الأرض واحمر وجهه احمرارا شديدا من الخجل .. فلم يكن يقوى على الصمود أمام نظراتها الثابتة ولو أن عينيها كانتا تشبهان عينيه تماما ..

فعادت تسأله :

ـ منزل من إذن ؟ .. سيدك ؟

فازداد تورد وجهه عمقا حتى غدا أرجوانى اللون ، ولكن عن شعور يختلف عن شعوره الأول ، وغمغم بكلمة سباب ، ثم أشاح بوجهه بعيدا ..

فاستطردت الفتاة المتعبة وهى توجه لى الخطاب :

ـ من هو سيده ؟ .. لقد كان يتكلم فيقول « بيتنا » ، و « قومنا » .. ولذلك حسبته ابن صاحب المنزل .. ثم إنه لم يقل أبدا « يا سيدتى » وهو يخاطبنى ، وكان يجب أن يقولها إذا كان خادما ، أليس كذلك ؟

فغدا وجه هيرتون رماديا داكنا كسحابة كثيفة مشحونة بالرعد ، بينما جذبت محدثتى فى صمت ، وأفلحت أخيرا فى إعدادها للرحيل .. وما لبثت أن خاطبت ابن خالها المجهول بمثل ما تخاطب واحدا من سياس « الجرانج » قائلة :

ـ اذهب الآن واحضر جوادى .. ويمكنك أن تأتى معى ، فإنى أريد أن أرى أين ينهض صائد العفاريت من وسط المستنقعات ، واسمع الحديث عن الجنيات كما تسميهن .. ولكن أسرع ! .. ماذا دهاك ؟ .. لقد أمرتك بأن تحضر لى الجواد ..

فزمجر الشاب قائلا : « سوف أراك هالكة فى الجحيم قبل أن أكون خادما لكِ ! » .

فقالت كاثرين فى دهشة : سوف ترانى ماذا ؟

ـ هالكة فى الجحيم أيتها الساحرة السليطة اللسان !

فتدخلت قائلة :

ـ كفى يا مس كاثى ! .. لقد رأيت أنك زججت بنفسك فى رفقة غير لائقة بك .. أمثل هذه الألفاظ توجه إلى سيدة شابة ؟.. ولكنى أرجوك ألا تبدئى النقاش والشجار معه ، وتعالى نبحث عن « المهر مينى » بنفسنا ونرحل من هنا ..

فهتفت تقول ، وقد شلت الدهشة البالغة حواسها :

ــ ولكن كيف يجرؤ على مخاطبتى بهذه اللهجة يا ايلين ؟ .. اليس المفروض أن يطيع ما آمره به ؟ .. سوف أخبر أبى بما قلته أيها المخلوق الشرير .. والآن !

فلم يبد على هيرتون ما ينم على اكتراثه بهذا الوعيد ، وهكذا انبثقت الدموع من عينيها لشعورها بالمهانة ، وتحولت إلى المرأة ، صائحة :

ــ اذهبى انت فاحضرى المهر واطلقى سراح الكلب فى التو واللحظة !

فأجابتها الخادم :

ــ حنانك يا آنسة !.. إنك لن تخسرى شيئا بالرقة وحسن المعاملة .. ومع ان مستر هيرتون هذا ليس ابن صاحب الدار، إلا أنه ابن خالك .. اما انا فلم يؤجرنى احد لخدمتك !

فصاحت كاثرين فى ضحكة ساخرة : هو ؟ .. هو ابن خالى أنا ؟ ..

ــ نعم .. هذه هى الحقيقة ..

فنظرت إلى فى قلق بالغ وتابعت الحديث :

ــ آواه يا ايلين ! .. لا تدعيهم يقولون مثل هذه الأشياء الفظيعة .. لقد ذهب أبى ليحضر ابن عمتى من لندن ، وهو ابن أحد السادة ! .. اما هذا ..

وكفت عن الكلام وانفجرت باكية ، إذ قلب كيانها مجرد التفكير فى وجود صلة من القرابة بينها وبين هذا المهرج ..

فهمست أقول لها :

ــ صه .. صه !.. إن الناس يمكن أن يكون لهم أبناء عمومة وأبناء خؤوله عديدون ومن كل نوع ، يامس كاثى ، دون أن يسوؤهم ذلك .. وكل ما فى الأمر أنه لا ينبغى لهم أن يختلطوا بهم أو يلزموا صحبتهم إذا كانوا شريرين بغضاء ..

ــ ولكنه ليس .. إنه لا يمكن أن يكون ابن خالى يا ايلين !

وكانت كلما أمعنت التفكير فى الأمر ازدادت حزنا وهما ، حتى ألقت بنفسها بين ذراعى كأنما تحتمى بى من هذه الفكرة..

اما انا فقد اشتد بى الضيق والكدر منها ومن الخادمة معا لتصريحاتهما المتبادلة ! .. فلم اشك لحظة أن قرب وصول لينتون ، الذى ذكرته كاثى ، سوف يبلغ لمستر هيثكليف .. وكنت موقنة اشد اليقين من أن أول ما ستفعله كاثرين عند عودة والدها هو أن تطلب منه إيضاحا لما ذكرته الخادمة عن قرابتها لهذا الفتى الجلف السيىء الأدب !

وكان هيرتون قد أفاق من نفوره واشمئزازه من اعتباره احد الخدم ، وبدا عليه التأثر لحزنها وأساها .. فمضى واحضر المهر امام الباب ، ثم أراد استرضاءها فأخذ من الوجار جروا صغيرا معوج السيقان ووضعه فى يدها وهو يطلب إليها أن تهدىء من روعها لانه لم يكن يقصد شيئا .. فتمهلت فى البكاء ريثما رمقته بنظرة فاحصة ملؤها الخوف والفزع ، ثم انفجرت باكية من جديد !

ولم أستطع مغالبة الابتسام لهذا النفور من الفتى المسكين الذى رأيته الآن شابا رياضيا متين البنيان وسيم الطلعة ممتلئا

صحة وعافية ، إلا انه يرتدى ثيابا خشنة رثة تلائم أعماله اليومية فى الحقل ، وجولاته الدائمة فى البرارى سعيا وراء الأرانب الجبلية وغيرها من انواع الصيد والقنص .. ومع ذلك خيل إلى اننى أستطيع أن استشف وراء محياه عقلا يحوى من الصفات والمزايا ما لم يتح لأبيه قط .. ومن المحقق أن هناك أشياء كثيرة طيبة تختفى وسط الأعشاب والحشائش ويطغى عليها تكاثرها الكثيف السريع فيخفى تحته نموها البطىء الذى لا يجد العناية الكافية لكى يؤتى ثماره .. ومع ذلك فقد رايت الدلائل على تربة غنية قد تغل ثمارا وفيرة لو اتيحت لها ظروف أكثر ملاءمة .. واحسب أن مستر هيثكليف لم يسىء معاملته بدنيا ، والفضل فى ذلك يرجع إلى طبيعة الفتى الذى شب لا يعرف الخوف ، والتى كانت بذلك لا تتيح الفرصة للإغراء بمثل هذا النوع من الاضطهاد .. فلم يكن على شىء من الخجل والاستكانة التى كان يمكن لهيثكليف أن يجد فيها دافعا لسوء معاملته له .. وهكذا يبدو انه إنما كرس حقده وضغينته ليجعل منه بهيما جاهلا فظ الخلق .. فلم يلقن شيئا من مبادىء القراءة والكتابة ، ولم يزجر يوما عن خلة سيئة طالما لم تكن تسبب لسجانه ضيقا او غضبا ، ولم تقد قدماه خطوة واحدة فى طريق الفضيلة ، ولا صين خلقه بنصيحة واحدة عن مهاوى الرذيلة .. وكان لجوزيف ـ فيما سمعت ـ نصيب وفير فى دماره ، إذ كان تحيزه له ـ وهو تحيز ناجم عن ضيق عقله ـ يدفعه إلى تملقه وتدليله مذكان صبيا صغيرا ، لانه كان يعده راس العائلة العريقة القديمة .. وبينما كان لا ينفك يتهم كاثرين ايرنشو وهيثكليف ـ عندما

كانا صغيرين حدثين ـ بإثارة السيد واستنفاد صبره ، فدفعه بذلك إلى البحث فى الخمر عن السلوى والعزاء مما كان يسميه « أساليبهما الشريرة » ، فإنه صار الآن يلقى عبء اخطاء هيرتون كلها على عاتق الغاصب الذى سلب أملاكه .. فإذا انطلق الصبى فى السباب لم يحاول تهذيبه ، وكذلك لم يحاول تقويمه مهما كان مسلكه مليئا بالذنوب والأخطاء .. ويظهر ان جوزيف كان راضيا كل الرضى وهو يراه ينحدر إلى أسوأ مدى .. فقد سمح بدمار الصبى ، وبترك روحه تهيم فى وديان الضلال ، لا لشىء إلا لاعتقاده بأن هيثكليف هو الذى سوف يكفر عن ذلك كله !.. وكان يعتقد أن هيرتون يجب ان يحفظ دماء أسرته العريقة فى ذرية ينجبها ، فكان يجد فى هذه الفكرة عزاء ما بعده عزاء .. وكان جوزيف لا يفتأ يصب فيه ، قطرة بعد قطرة ، كبرياء الاعتزاز باسم عائلته وسلالته .. وكان يود ـ لو وجد الجراة على ذلك ـ أن ينمى فيه الحقد والكراهية نحو مالك « مرتفعات ويذرنج » الحالى .. ولكن فزعه ورهبته من ذلك المالك كانا قد بلغا مرتبة الفزع من الشياطين والأرواح الشريرة !.. فكان يقصر مشاعره حياله على الغمز والتلميح فى غمغمة خافتة ، وعلى الوعيد بالويل والثبور .. فى سره !.. ولست أزعم أننى أعلم عن يقين مجرى الأمور فى « مرتفعات ويذرنج » فى تلك الأيام ، وإنما أروى ما كنت أسمعه ، لأننى لم اكن أرى هنا إلا أقل القليل .. وكان القرويون يؤكدون أن مستر هيثكليف رجل شحيح يسوم مستأجريه العذاب ويقسو عليهم .. غير اننى

أشهد ، والحق يقال ، أن المنزل من الداخل استعاد مظاهره القديمة من النظافة وتوفر وسائل الراحة ، تحت إدارة النساء اللواتى استخدمهن ، وأن مشاهد العربدة والشغب التى كانت تمثل ايام هندلى لم يعد لها وجود بين جدرانه الآن .. فقد كان السيد من الحزن والكآبة بحيث عزف عن مخالطة الناس ونشدان صحبتهم ، خيارهم واشرارهم معا .. وما زال كذلك حتى الآن ..

ومهما يكن من أمر فان ذلك لا شأن له بمجرى قصتى .. ولنعد إلى مس كاثى ، فقد رفضت قبول هدية الصلح ، وهى الجرو الرضيع ، وطلبت أن يؤتى لها بكلبيها « شارلى وفينكس » ، فجاءا يعرجان ، وقد تدلى رأساهما .. وعندئذ بدأنا فى رحلة العودة إلى المنزل ، على أسوأ ما تكون الرحلات، وكل واحدة منا تحمل همها وأساها .. ولم افلح فى أن استخلص من سيدتى الصغيرة كيف قضت يومها ، سوى ذلك الشىء الذى حدسته ، وهو أن كعبتها كانت فى ذلك اليوم « صخور بنستون » .. وانها وصلت بغير حادث حتى باب (مرتفعات ويذرنج) ، عندما تصادف اندفاع هيرتون وفى صحبته رفقة من الكلاب لم تلبث أن هاجمت قافلتها .. وكانت المعركة حامية الوطيس حتى استطاع سادة الفريقين التفريق بينهما .. وكان هذا الحادث سببا للتعارف بينهما ، فقد أطلعت كاثرين هيرتون على شخصيتها ، وأخبرته بما اعتزمته من الذهاب إلى التلال ، ثم سألته أن يرشدها إلى الطريق ، وأخيرا استدرجته إلى مصاحبتها .. وقد كشف لها عن أسرار « كهف

الجنيات » وعشرات غيره من الأماكن العجيبة .. ولكنها ، وقد كانت غاضبة منى ، لم تر أن تمن على بوصف ما شاهدته من الأشياء المسلية الغريبة .. ومع ذلك استطعت أن أتبين أن رفيقها ودليلها كان موضع رضاها حتى آذت شعوره بمخاطبته كأحد الخدم ، وحتى آذت خادمة هيثكليف شعورها بما زعمته من أنه ابن خالها !.. ثم جاءت تلك الألفاظ الشنيعة التى وجهها إليها فملأت قلبها حقدا وألما !.. وهى التى كانت تسمع دائما الفاظ « حبيبتى » و « عزيزتى » و « ملكتى » و « ملاكى » يخاطبها بها كل إنسان فى «الجرانج» ، فوجه إليها الآن السباب الشائن من شخص غريب !.. انها لم تكن تفهم لذلك سببا .. وقد بذلت جهدا شاقا لأنال منها وعدا باخفاء أحزانها عن والدها ، وشرحت لها كيف أنه لا يرتاح إلى أى مخلوق ممن يسكنون « المرتفعات » ، وكم يكون مبلغ أسفه وأساه لو عرف أنها كانت هناك .. ولكن النقطة التى ألححت فيها كثيرا ، هى تلك الحقيقة الواقعة هى أنها لو افشت له اهمالى لأوامره، فربما بلغ به الغضب إلى حد يضطرنى إلى ترك المنزل .. ولم تكن كاثى لتقوى على احتمال هذه النتيجة الأليمة ، ومن ثم وعدتنى بكتمان الأمر ، إكراما لى ، وحافظت على هذا الوعد .. فقد كانت ، على أية حال ، فتاة رقيقة الشعور حلوة الشمائل.

* * *

الفصل التاسع عشر

ثم وافانى خطاب مجلل بالسواد ، يعلن موعد عودة سيدى. فقد ماتت ايزابيلا ، وكتب لى السيد طالبا تحضير ثياب الحداد لابنته ، واعداد حجرة خاصة ، وغيرها من وسائل الراحة ، لابن أخته الصغير .. وقد جنت كاثرين فرحـا من التفكير فى قرب استقبالها لأبيهـا عائـدا من رحلته ، واستسلمت إلى تصورات حماسية لما ترجوه من مزايا لاعدد لها لابن عمتهـا « الحقيقى » .. ثم حلت تلك الأمسية التى كنا نتوقع وصولهما فيها .. وكانت كاثرين منذ الصباح الباكر منهمكة فى ترتيب أشيائها الخاصة الصغيرة .. أما الآن ، وقد ارتدت ثوبهـا الأسود الجديد ـ ويا للطفلة المسكينة !.. إن موت عمتها لم يغمر نفسها بحزن واضح المعالم ـ فقد اضطرتنى بمضايقاتها الكثيرة المستمرة ، إلى السير معها حتى نهاية أرضنا لنكون فى استقبالهما ..

ومضـت تثرثر ونحن نتمشى الهوينى فـوق المرتفعـات والمنخفضات المكسوة بالعشب النـدى تحت ظلال الأشجار :

ـ ان لينتون لا يصغرنى إلا بستة شهور .. فما أجمل أن يكون رفيقى فى اللعب !.. وكانت عمتى ايزابيـلا قـد بعثت إلى أبى بخصلة من شعره الجميل ، فإذا به لا يقل نعومة عن شعرى وإن كان يفوقه فى خفته وشقرته .. وقـد احتفظت بها فى عناية داخل صندوق صغير من الزجاج ، وكثيرا ما كنت

أفكر انه سوف يكون أمرا بهيجا لو أتيح لى ان أرى صاحبها عيانا !.. آه !.. اننى سعيدة حقا !.. فها هو أبى العزيز ، ابى المحبوب يوشك على المجىء !.. تعالى يا ايلين .. دعينا نجر إلى البوابة .. تعالى نجر معا ..

واخذت تعدو ، ثم تعود ثانية ثم تجرى لتعـود من جـديد عدة مرات ، قبل أن تسعفنى خطواتى المتئـدة الكليلة ببلوغ البوابة .. وهنـاك جلست فوق العشب الأخضر على جانب الممر ، وحاولت جعلها تتذرع بالصبر فى الانتظار .. ولكن ذلك كان محـالا .. فلم تسـتقر فى جلستها دقيقة واحـدة .. وكانت لاتنى تهتف بى :

ـ ما أشـد بطئهما فى الحضـور !.. آه !.. اننى أرى سحابة من الغبار فى الطريق .. فلعلهما قادمان ؟.. ولـكن لا .. متى يصـلان إلى هنا إذن ؟ .. الا نمضى فى الطريق قليلا يا ايلين ؟.. نصف ميل مثلا ؟.. مجرد نصف ميل فقط ؟ .. الا قولى نعم .. دعينا نمض حتى تلك الخميلة من الشجر عند منعطف الطريق !

ولكنى رفضت فى إصرار .. وأخيرا انتهى انتظارها ، فقد ظهرت عربة السفر وهى قادمة تعدو فى الطريق .. وصـاحت مس كاثى ومدت ذراعيها إلى الأمام ، عندما رأت وجه أبيها يطل من النافذة .. وهبط أبوها من العربة وهو لا يقل عنهـا لهفة وشوقا ، فمضت فترة طويلة قبل ان يفكر احدهما فى شىء غير شخصـيهما .. وانتهزت فرصة استغراقهما فى

العناق والقبلات ، فمضيت أختلس النظر إلى لينتون الصغير ، وكان نائما فى ركن المقعد ، متدثرا بمعطف سميك ذى أطراف من الفراء ، كما لو كنا فى صميم الشتاء .. فوجدته غلاما شاحب الوجه ، رقيق الجسم ، تحسبه فتاة لما يبدو فى مظهره من ضعف أنثوى .. وكان الشبه بينه وبين سيدى من القوة بحيث تخاله أخاه الأصغر .. ولكن كان فى مظهره من الوهن والضعف والمرض ما لم يكن لادجار لينتون قط .. ورآنى سيدى أنظر إلى الغلام ، فنصحنى ــ بعد أن صافحنى ــ بأن أغلق باب العربة وأن أدعه نائما لأن الرحلة أتعبته ..

وكانت كاثى تتوق إلى أن تلقى عليه نظرة ، ولكن والدها طلب إليها أن ترافقه ، ومشيا سويا فى الحديقة ، بينما أسرعت أسبقهما لأخبر الخدم بمقدم السيد ..

ووقفا عند أسفل الدرج الأمامى ، حيث قال مستر لينتون مخاطبا ابنته :

ــ والآن يا عزيزتى .. ان ابن عمتك ليس فى مثل قوتك أو مرحك ، ولا تنسى أنه فقد والدته منذ عهد قصير .. فلا تنتظرى منه أن يشاركك اللعب والجرى من أول يوم .. كما أرجو ألا تثقلى عليه بالكلام ، وأن تدعيه هادئا هذا المساء على الأقل ..

فأجابت كاثرين :

ــ سمعا وطاعة يا أبتاه !.. ولكنى أريد أن أراه ، فانه لم يطل من العربة مرة واحدة !

ووقفت العربة أمام الدرج فأوقظ النائم وحمل إلى الأرض حيث وقف إلى جوار خاله ، الذى وضع يده الصغيرة فى يد ابنته ، قائلا :

ــ هذه ابنة خالك كاثى ، يالينتون .. وقد أولعت بك من قبل أن تراك ، فلا تحزنها بالبكاء الليلة ، وحاول أن تبتسم الآن فقد انتهت الرحلة الشاقة ، ولم يبق إلا أن تنال قسطك من الراحة وأن تمرح كما تشاء ..

فتراجع الغلام نافرا من مصافحة كاثرين ، ورفع يده ليمسح عبراته التى بدأت تتلألأ بين أهدابه ، ثم قال :

ــ دعنى أذهب إلى الفراش إذن ..

فهمست قائلة له ، بينما كنت أقوده نحو باب المنزل :

ــ تعال .. تعال ، أيها الغلام الطيب .. انك بذلك تدفعها إلى البكاء مثلك .. انظر كيف تبدو حزينة من أجلك !

ولست أدرى هل كان اكتئابها بسببه أم من أجله ، ولكن الواقع أن ابنة خاله كان يخيم على أساريرها من الحزن والكآبة مثلما كان يبدو فى محياه ، عند ما رجعت ثانية إلى جانب والدها .. ودلف ثلاثتهم إلى المنزل ، وارتقوا الدرج إلى قاعة المكتبة ، حيث كان الشاى معدا لهم .. ومضيت أنزع قبعة لينتون ومعطفه ، ثم أجلسته فوق أحد المقاعد بجوار المائدة ، ولكنه ما كاد يجلس حتى بدأ فى النحيب من جديد .. فسأله السيد عن سبب بكائه ، فأجاب وهو يشرق بدموعه :



فبدأت تربت على خصلات شعره ، وتقبل وجنته ، وتقدم له الشاى فى طبق فنجانها كأنه طفل صغير ..

ــ اننى لا أستطيع الجلوس على المقعد .

فقال خاله فى حلم وأناة :

ــ اذهب إلى الأريكة إذن ، وسوف تحمل إليك ايلين الشاى ..

وشعرت بأن السيد قد لقى عناء شديدا طوال رحلته ، بسبب ربيبه العليل المشاكس ، وأنه قد تحمله فى صبر وحلم لا ينفذان ..

وراح لينتون يجر قدميه المتثاقلتين حتى بلغ الأريكة ، فاستلقى فوقها ، بينما حملت كاثى قدحها ومقعداً منخفضا ، وأتت تجلس بجواره .. ولبثت صامتة فى بادىء الأمر ، ولكن ذلك لم يطل كثيرا ، فقد استقر عزمها على أن تجعل من ابن عمتها الصغير ملهاة لها ، كما أرادت أن يكون بالنسبة إليها .. فبدأت تربت على خصلات شعره ، وتقبل وجنته ، وتقدم له الشاى فى طبق فنجانها كأنه طفل صغير ، فسره ذلك كثيرا ، لأنه فى الواقع لم يكن أكثر من طفل غرير ، وأخذ يجفف عينيه من الدموع ، وقد أضاء محياه بابتسامة خائرة !

فقال لى السيد بعد أن ظل يرقبهما لحظة :

ــ أوه !.. سوف يطيب له العيش هنا كثيرا ، إذا استطعنا أن نحتفظ به هنا يا ايلين .. فإن صحبة طفلة فى سنه لن تلبث أن تنفث فيه روحا جديدة ، وسوف تساعده رغبته فى الاستزادة من الصحة والقوة ، على اكتسابهما سريعا ..

فقلت فى نفسى : أجل .. إذا استطعنا أن نحتفظ به هنا !

.. فقد اكتنفتنى موجة من الريبة والتوجس الأليم ، من انه لم يكن ثمة فى ذلك غير أمل ضئيل .. ورحت افكر كيف يمكن لهذا الغلام العليل الهزيل أن يعيش فى « مرتفعات ويذرنج » ؟ .. واية رفقة تلك التى ستجمع بينه وبين أبيه وهيرتون ؟ واية دروس تلك التى سوف يتلقاها عنهما ؟

ومن المؤلم أن شكوكنا سرعان ما تحققت ، بل بأسرع مما كنت أتوقع .. كنت قد أخذت الصغيرين إلى الطابق العلوى ، بعد أن انتهيا من تناول الشاى ، وانتظرت بجانب لينتون حتى استغرق فى النوم ــ إذ لم يشأ أن افارقه حتى ينام ــ ثم نزلت إلى الطابق الأرضى حيث وقفت إلى جوار المائدة فى البهو أشعل شمعة لحجرة نوم مستر ادجار ، عندما قدمت خادمة من المطبخ لتقول لى إن جوزيف ، خادم مستر هيثكليف ، بالباب يطلب التحدث إلى السيد .. فسرت فى بدنى رعدة عنيفة ، وقلت :

ــ سوف أسأله أولا عما يرغبه ، فانها ساعة غير ملائمة لإزعاج الناس ، وفى اللحظة التى يعودون فيها من رحلة طويلة .. ولست أظن السيد على استعداد لأن يراه ..

وكان جوزيف قد عبر المطبخ ، بينما كنت أنطق بهذا القول ، ودلف إلى البهو .. كان متسربلا فى رداء الأعياد والآحاد ، وقد اكتسى وجهه الهضيم سمة من المشاكسة والتظاهر بالتقوى .. وكان يمسك قبعته بيد ، وعصاه باليد الأخرى ، وقد راح ينظف حذاءه فى ممسحة الأرجل ..

فقلت له ببرود :

ــ طاب مساؤك يا جوزيف .. اى أمر اتى بك إلى هنا الليلة ؟

فاجاب وهو يزيحنى بيده جانبا فى ازدراء :

ــ إنه مستر لينتون الذى أريد أن أتحدث إليه ..

ــ ان مستر لينتون على وشك الذهاب إلى الفراش ، فاذا لم يكن ما تريد قوله له شيئا هاما ، فاننى على يقين من أنه غير مستعد لسماعه الآن ..

ثم تابعت كلامى قائلة :

ــ وخير لك ان تجلس ، وتعهد إلى برسالتك ..

فراح يجيل انظاره فى الأبواب المغلقة المتجاورة ، ثم قال :

ــ أيها حجرته ؟

فادركت أنه مصر على رفض وساطتى ، وهكذا صعدت فى نفور بالغ إلى المكتبة ، وأعلنت للسيد مقدم ذلك الزائر الذى يحضر فى وقت غير ملائم للزيارة ، ناصحة له بأن يرفض مقابلته ويستمهله إلى اليوم التالى .. ولكن قبل أن يتسع الوقت أمام مستر لينتون ليفوضنى فى اداء ذلك ، كان جوزيف قد صعد فى أعقابى ، واندفع إلى داخل الحجرة حيث وقف عند طرف المائدة القصى ، واضعا كلتا قبضتيه

فوق قمة عصاه ، ثم اندفع يقول بصوت جهـورى ، كأنما كان يتوقع معارضة أو رفضا لمطالبه :

ـ لقد أرسلنى هيثكليف لآخذ غلامه ، ولن أعود بدونه !

فأخلد ادجار لينتون إلى الصمت لحظـة ، وقد خيمت على اساريره سحابة من الحزن البالغ .. إنه من جانبه خليق بأن يشفق على الغلام ويرثى لحاله ، فوق أنه ذكر آمال ايزابيـلا ومخاوفها وتمنياتهـا المتلهفة لولدها ، عند ما اسـتودعته إياه وعهدت به إلى عنايته ورعايته ، فاستبد به حزن مرير لمجـرد التفكير فى التخلى عنه ، وراح ينقب فى أعماق فكره وقلبه عن طريقة يتجنب بهـا الاستسـلام لطلب هيثكليف .. ولـكن القريحة لم تسعفه بأية خطة تستهدف هذه الغـاية ، كمـا أنه لو كشف عن اية رغبـة فى الاحتفاظ بالغلام ، فان ذلك سوف يزيد أباه تشبثا واستمساكا به .. ولم يبق أمامه إلا أن يسلمه لأبيه .. ولكنه ، مهما يكن من أمر ، لن يرضى بإيقاظه من النوم فى هذه الساعة ..

وعندئذ قال فى هدوء :

ـ أخبر مستر هيثكليف أن ابنه سوف يأتى إلى « مرتفعات ويذرنج » غدا .. فانه فى فراشه الآن ، وفى حالة من الإعياء لا تسمح له بقطع هذه المسافة الطويلة .. ويمكنك أن تخبره

ايضا أن والدة لينتون كانت تود أن يبقى فى رعـايتى ، إذ أن صحته الآن ضعيفة وتحتاج للمزيد من العناية ..

فصاح جوزيف وهو يدق الأرض بعصاه ، ويقـول بلهجة آمره :

ـ كلا .. إن ذلك لا يعنى شيئا بالنسبة له .. فان هيثكليف لا يقيم وزنا للأم ، ولا لك !.. ولكنه سوف يسترد ابنه ، ولا بد لى من أخذه الآن !

فقال مستر لينتون فى حزم وصرامة :

ـ لن تأخـذه الليلة .. والآن ، انزل حالا ، واذهب إلى سيدك فأعد على مسـامعه ما قلته لك .. خذيه يا نللى إلى تحت .. اذهب !

ثم أمسك بذراع العجوز الثائر ودفعه إلى خارج الحجرة ، وأغلق الباب دونه .. فصاح جـوزيف وهو ينسـحب فى بطء وتمهل :

ـ حسنا جدا .. سوف يحضر بنفسه غـدا .. وعليك أن تطرده هو الآخر ، إذا جرؤت !

* * *

الفصل العشرون

رأى مستر لينتون ، تجنبا لخطر تنفيذ هذا الوعيد ، أن يكلفنى بأخذ الصبى إلى دار أبيه ، فى الصباح الباكر ، على مهر كاترين الصغير ، ثم أضاف قائلا :

ـ ما دام أمر هذا الغلام قد خرج من يدنا الآن ، ولم يعد لنا سلطان على مصيره ومستقبله ، سواء أكان حسنا أم سيئا ، فانه يجب عليك ألا تذكرى لابنتى كلمة واحدة عن المكان الذى ذهب إليه .. لأنها لا يمكن أن تتصل به من الآن فصاعدا ، ومن الخير لها أن تظل جاهلة بوجوده فى مكان قريب ، لئلا يستبد بها القلق ، وتتوق إلى زيارة « المرتفعات » لرؤيته .. قولى لها فقط إن أباه قد بعث فى طلبه فجأة ، فاضطر إلى فراقنا ..

وقد أظهر لينتون الصغير تمنعا ونفورا من إيقاظه من فراشه فى الساعة الخامسة ، وأبدى دهشته البالغة عندما أخبرته بوجوب الاستعداد لرحلة جديدة .. ولكنى هونت عليه الأمر بأن قلت له إنه ذاهب لقضاء بعض الوقت مع أبيه ، مستر هيثكليف ، الذى اشتدت رغبته فى رؤيته بحيث لم يطق تأجيل هذه السعادة حتى يرتاح الغلام من رحلته الطويلة ..

فصاح الغلام فى حيرة غريبة ودهشة بالغة :

ـ أبى ؟.. أبى أنا ؟.. إن أمى لم تذكر لى قط أن لى أبا ! .. وأين يقيم هذا الأب ؟.. إننى أفضل البقاء مع خالى ..

ـ إنه يقيم على مسافة قريبة من « الجرانج » .. وراء هذه التلال تماما .. والمكان لا يبعد كثيرا عن هنا بحيث يمكنك أن تأتى سيرا على الأقدام عندما تستكمل صحتك وتستعيد قواك .. ثم إنك يجب أن تسر للذهاب إلى دارك ورؤية أبيك .. وعليك أن تحاول أن تحبه ، كما كنت تحب أمك ، وعندئذ سوف تجد منه كل حب وشغف بك ..

فسألنى لينتون :

ـ ولكن لماذا لم أسمع عنه من قبل ؟.. ولماذا لم تكن أمى تعيش معه كسائر الناس ؟..

ـ كانت أعماله تستلزم بقاءه فى الشمال ، على حين كانت صحة والدتك تقتضى إقامتها فى الجنوب .

فعاد الغلام يسأل فى إلحاح :

ـ ولماذا لم تحدثنى أمى عنه إذن ؟.. لقد كانت تحدثنى كثيرا عن خالى فتعلمت أن أحبه من زمن طويل .. فكيف يمكن أن أحب أبى ، وأنا لا أعرفه ؟..

فقلت :

ـ أوه !.. إن الأطفال جميعا يحبون والديهم .. ولعل والدتك خشيت أن ترغب فى الذهاب إلى أبيك والإقامة معه إذا أكثرت من التحدث عنه أمامك . ولكن لنسرع الآن ، فإن الركوب مبكرا فى مثل هذا الصباح المشرق الجميل خير من النوم ساعة أخرى ..

ـ وهل هى ذاهبة معنا ؟.. تلك الفتاة الصغيرة التى رأيتها أمس ..

فأجبته : كلا .. إنها لن تذهب الآن ..

فأردف يسألنى : وهل يذهب خالى معنا ؟..

قلت : كلا .. سوف تذهب إلى هناك فى رفقتى ..

فعاد يستلقى فى فراشه ويدس رأسه فى الوسادة ، وقد استغرق فى التفكير وعلا القطوب أساريره ، وما لبث أن انخرط فى البكاء قائلا :

ــ اننى لن أذهب من غير خالى .. فما أدرانى إلى أين تريدين أن تأخذينى !

وحاولت إقناعه بأن إظهاره النفور من لقاء أبيه أمر غير كريم .. ومع ذلك ظل يقاوم ، فى عناد وإصرار ، محاولاتى تهيئته للخروج ، حتى اضطررت إلى الاستعانة بالسيد لملاطفته وملاينته حتى ينهض من الفراش .. وأخيرا قام الغلام المسكين ، بعد أن بذلنا له الوعود والتأكيدات ــ الزائفة طبعا ــ بأن غيابه لن يطول ، وأن مستر ادجار وكاثى سوف يزورانه هناك ، وغير ذلك من الوعود « الزائفة » الأخرى التى كنت أخترعها وأرددها على مسامعه بين وقت وآخر أثناء الطريق .. وقد أثر فيه الهواء النقى المنعش المحمل بعبير الزهور البرية ، وأشعة الشمس المشرقة ، والخبب الرقيق للمهر « مينى » ، باشاعة الأمل والهدوء فى نفسه واحلالهما محل الاضطراب والقنوط .. فلم تمض لحظات على مسيرنا حتى بدأ يمطرنى بالأسئلة عن بيته الجديد ، وعن قاطنيه ، فى اهتمام وحيوية متزايدين .

فقد استدار ليلقى نظرة أخيرة على الوادى الخصيب الذى كان يتصاعد منه ضباب رقيق فيتجمع فى سحابة أشبه بالقطن المندوف عند حافة القبة الزرقاء ، وما لبث أن سألنى :

ــ هل « مرتفعات ويذرنج » مكان بهيج مثل « ثرشكروس جرانج » ؟ ..

فأجبته :

ــ إنه غير محاط بالأشجار الكثيفة مثله ، كما أنه ليس فى سعته وفسحته .. غير أنك هناك تستطيع أن ترى جمال الريف حولك على مدى بعيد .. ثم إن الهواء هناك سوف يساعد على تقدم صحتك ، إذ هو أكثر جفافا وعذوبة .. ولعلك ، فى بادىء الأمر ، تجد المبنى عتيقا قاتما ، مع أنه منزل محترم يعد ثانى اثنين هما أفضل منازل هذه المنطقة .. وسوف تستمتع بجولات لطيفة بين الأحراش ، كما أن هيرتون ايرنشو ــ وهو ابن خال مس كاثى ، وبالتالى يعد قريبا لك ــ سوف يريك أجمل المواقع وأروع المناظر .. وسيكون فى وسعك أن تحمل كتابا ، عند ما يكون الجو جميلا ملائما ، فتتخذ من العشب الأخضر ركنا للدرس والاستمتاع بالقراءة .. كما أن خالك قد يصحبك فى نزهة على الأقدام ، فانه كثيرا ما يخرج للمشى فوق التلال ..

ــ وما شكل أبى ؟.. أهو شاب كخالى ، وفى وسامته وظرفه ؟..

ــ إنه فى مثل سنه ، ولكنه أسود الشعر والعينين ، وأكثر منه عبوسا وصرامة .. وهو أطول قامة ، وأعظم هامة ..

ولعلك لا تجده ، فى بادىء الأمر ، رفيقا عطوفا ، لانه ليس من طبعه أن يكشف عن عواطفه .. ولكن عليـك أن تكون معـه صريحا ودودا .. ومن الطبيعى ان يزداد حبا لك وولعا بك اكثر من اى عم أو خال ، لأنك ابنه ..

نغمغم لينتون :

ـ أسود الشعر والعينين ؟.. اننى لا استطيع أن اتصوره .. وعلى ذلك فانى لا اشبهه ، اليس كذلك ؟..

ـ لا تشبهه كثيرا ..

ولكنى قلت فى نفسى وانا أنظر إليه : « بل انك لا تشـبهه البتة » .. بينما رحت أتأمل بشرته الناصعة البياض وجسده النحيل ، وعينيه الواسـعتين الناعستين ، اللتين تشبهان عينى أمه ، إلا أنهما لا يشع منهما أى أثر لروحها الوثابة المتلالئة ، فيما عدا لحظات خاطفة تومضان فيها من أثر المرض الذى ينهكه ..

وتنبهت على صوته وهو يغمغم :

ـ اليس من العجيب انه لم يحضر قط لرؤية امى أو رؤيتى ؟ .. فهل رآنى من قبل ؟ .. إن كان قد فعل ، فلا بد اننى كنت طفلا صغيرا ، لأننى لا أذكر أقل شىء عنه !

فأجبته :

ـ لا تنس يا سيد لينتون أن ثلاثمائة ميل مسافة عظيمـة ، كما أن عشر سنوات تبدو مختلفة فى طولها فى نظـر شـخص

كبير عما هى فى نظرك أنت .. ولعل مسـتر هيثكليف كان يعتزم الذهاب إليكما من صيف لآخر ، ولكنه لم يجد الفرصة المواتية قط ، حتى فات الأوان الآن .. وأرجو الا تزعجـه بالأسئلة فى هذا الأمر ، فإن ذلك سـوف يضـايقه ، دون جدوى أو فائدة ..

وشغل الغلام بالاستغراق فى افكاره وتأملاته بقية رحلتنا ، حتى وقف بنا المهر أمام بوابة الحديقة عند المنزل الريفى .. ورحت أراقبه خفية لأتبين فى أساريره المشاعر التى تختلج بها نفسه ، فرايته يتأمل الواجهة المنقوشة ، والنوافذ ذات الحوافى المنخفضة ، وخمائل عنب الديب المتناثرة ، واشجار الحور المائلة على سوقها ، فى اهتمام بالغ رصين ، ثم يهـز رأسـه ! .. كانت مشاعره الخاصة تفيض استهجانا للمنظر الخارجى لمقره الجديد ، ولكنه كان من اللبـاقة بحيث أرجأ تذمره وشكواه ، لعله يجد فى الداخل ما يعوضه عن هـذا القبح الذى اثار اشمئزازه ..

وقبل أن يترجل عن مهره ، مضيت وفتحت البـاب .. كانت الساعة وقتئذ قد بلغت السادسة والنصف ، وكانت الأسرة قد فرغت لتوها من تناول طعـام الإفطار ، وأخـذت الخادم فى إزالة بقايا المائدة وتنظيفها .. وكان جوزيف يقف بجوار مقعد سيده ويتحدث إليه عن جواد أعرج ، على حين كان هيرتون يستعد للذهاب إلى حقل الدريس ..

فلما وقعت أنظار مستر هيثكليف على [illegible] قائلا :

— أهلا بك يا نللى !.. لقد كنت اخشى أن أضطر للذهاب بنفسى إلى « الجرانج » لآخذ ما أملكه .. ولكنى أراك احضرته إلى هنا ، أليس كذلك ؟.. دعينا نر ما يمكن أن نصنعه به !

ثم نهض من مجلسه ، ومشى إلى الباب بخطواته الواسعة، يتبعه جوزيف وهيرتون وقد تملكهما الفضول وحب الاستطلاع .. فأجال لينتون المسكين عينيه المرتاعتين فى الوجوه الثلاثة التى كانت تتطلع إليه ..

وبدأ جوزيف قائلا ، بعد أن تفحصه فى صرامة وإمعان :

— يقينا انه بادلك أيها السيد ، وأرسل لك ابنه هو !

أما هيثكليف فقد ظل يحدج ابنه بنظرات متفرسة حتى أصابت الغلام نوبة من الاضطراب والارتباك ، وعندئذ أطلق ضحكة ساخرة عالية وهتف يقول :

— ما شاء الله !.. ما أبهى هذا الجمال وما أروعه !.. وما أحلاه من « شىء » ساحر فتان !.. اترينهم كانوا يطعمونه القواقع واللبن الرائب يا نللى ؟.. آه !.. ليمحق الشيطان روحى !.. ولكن ذلك أسوأ مما توقعت بكثير .. ويعلم الشيطان أننى لم أكن مغرقا فى الأمل والخيال !

فطلبت إلى الطفل الحائر المرتعد أن يترجل عن مهره ، وأن يدخل البيت .. ولم يكن المنكود قد فهم تماما ما يعنيه حديث أبيه ، أو هل كان هو المقصود به أم غيره .. والواقع انه لم يكن واثقا بعد أن ذلك الغريب المتجهم الذى يفيض لسانه بالسخرية اللاذعة هو أبوه .. ولكنه تعلق بى وقد ازدادت

رعدته وارتعاشه .. فلما جلس مستر هيثكليف وصاح به : « تعال هنا » اخفى وجهه فى ذراعى وانخرط فى البكاء ..

فمد هيثكليف يده وجذبه حتى أوقفه بين ركبتيه ، ثم أمسك بذقنه ورفع رأسه عاليا وهو يقول :

— صه .. صه !.. دعك من هذا الهراء .. إننا لن نؤذيك يا لينتون .. أليس هذا اسمك ؟.. انك ابن أمك بأكملك !.. فأين نصيبى فيك أيها الكتكوت البكاء !

ونزع قلنسوة الغلام ، ودفع إلى الخلف غدائره الشقراء الكثيفة ، وراح يتحسس ذراعيه النحيلتين وأصابعه الصغيرة .. وكف لينتون عن البكاء أثناء هذا الفحص الدقيق ، ورفع عينيه الواسعتين الزرقاوين يفحص بهما فاحصه !

وبعد أن اقتنع هيثكليف بأن أطراف الصبى كانت جميعا سواء فى الرخاوة والضعف ، سأله قائلا :

— هل تعرفنى ؟

فأجابه لينتون وفى عينيه نظرة خوف جوفاء : كلا ..

— لعلك سمعت عنى إذن ؟..

فأجابه ثانية : كلا ..

— أتقول كلا ؟.. ما أقبح ذلك من أمك !.. ألم توقظ فيك قط مشاعر الاحترام نحو أبيك !.. دعنى أخبرك إذن انك ابنى .. وأن أمك كانت فاجرة شريرة إذ تركتك جاهلا حقيقة الأب الذى أنجبك !.. والآن لا ترتع ولا تجفل منى ، ولا تدع

وجهك يحمر هكذا .. ولو أن ذلك يعد شيئا عظيما أن نرى أن الدماء التى تجرى فى عـــروقك ليست بيضاء هى الأخـــرى .. وكن صبيا طيبا ، أكن لك خير الآباء ..

ثم التفت نحوى قائلا :

ـ وأنت يا نللى .. إذا كنت متعبة فيمكنك أن تجلسى .. وإلا فعودى إلى بيتك ! .. وأحسبك سوف تروين كل ما ترينه وتسمعينه هنا لصاحب « الجرانج » التائه الحقر .. كمـــا أن هذا « الشيء » لن يستقر أو يهدأ ما دمت تحومين حوله ..

فأجبته :

ـ حسنا .. ولكنى أرجو أن تكون رفيقا بالصبى يا مستر هيثكليف ، وإلا فإنك لن تستطيع الإبقاء عليه طويلا .. واذكر أنه كل ما لك من قرابة فى هـــذا العالم ، بل كل ما ســوف يكون لك ..

فقال ضاحكا :

ـ لا تخشى عليه شيئا ، فسوف أكون رفيقا به غاية الرفق .. ولكن لا ينبغى لأحـــد غيرى أن يكون رفيقا به أو مشفقا عليه .. فإنى غيور على احتكار عواطفه لنفسى ! .. وسوف أبدأ الرفق به من الآن ! .. اذهب يا جوزيف وأحضر طعـــاما لإفطاره .. وأنت يا هيرتون ، أيها العجل الشيطانى ، امض إلى عملك !

فلما خرج كل منهما لشأنه ، استطرد يقول :

ـ نعم يا نللى .. فإن ابنى هو المالك المرتقب لأملاككم .. ولست أود أن يموت قبل أن أكون واثقا من أننى وارثه !..

وفضلا عن ذلك فإنه ابنى ، وأريد أن أتمتع بلذة النصر عندما أرى عقبى يصبح المالك الوحيد لضياعهم وأملاكهم ، وعنـــدما أرى ابنى يستخدم أبناءهم ليحرثوا أرض آبائهم وهم فيهـــا أجراء يتلقون أجورهم من يده .. إن ذلك هو الاعتبار الوحيد الذى يجعلنى أطيق هـــذا الجرو .. إننى أحتقره لتفـــاهة شخصه ، وأمقته للذكريات البغيضة التى يثيرها فى نفسى .. ولكن هذا الاعتبار الذى ذكرته لك كاف كل الكفاية ، وهـــو معى فى أمان ، وسينال من الرعاية ما لا يقل عما يضفيه سيدك على ابنته .. لقد أعددت له حجرة فى الطابق العلوى ، وفرشتها بأثاث جميل .. كما عينت له مدرسا ، سوف يحضر ثلاث مرات كل أسبوع من مسافة عشرين ميلا ، ليعلمه كل ما ينبغى أن يتعلمه .. وقد أمرت هيرتون أن يطيع أمره .. والواقع أننى رتبت كل شيء بحيث يظل محتفظا بروح السيادة والسمو على كل من يعيش معه .. ولو أننى أشعر بالأسف العميق إذ وجدته لا يستحق كل هـــذا العناء .. وإذا كنت قد تمنيت شيئا من الســعادة فى هذه الدنيا ، فهو أن أجد ابنى شـــيئا ذا قيمة خليقا بالإعجاب والتقدير والزهو .. وها أنذا أجد الخيبة المريرة والفشل الذريع مع هـــذا التعس الكالح الوجه الذى لا يكف عن الأنين والنواح !

وفيما كان يتحـــدث إلى ، عاد جوزيف يحمل طبقـــا من عصـــيدة اللبن ، وضعه أمام لينتون الذى ظل يتململ أمام الطعام التقليدى للمنـــزل ، وينظر إليه شزرا ، ثم يقول إنه لا يـــستطيع أن يأكله ! .. ورأيت الخادم الشيخ يشاطر سيده

سخريته بالغلام على نطاق واسع ، ولو أنه كان مرغما على الاحتفاظ بشعوره فى أعماق قلبه ، لأن هيثكليف كان جادا فى ارغام أتباعه على احترام الغلام واعتباره سيدا ..

فحملق جوزيف فى وجه لينتون ، وقال وهو يخفض من صوته خشية أن نسمعه :

ـ لا تستطيع أن تأكله ؟ .. ولكن السيد هيرتون لم يكن يأكل شيئا سواه قط عندما كان صبيا صغيرا .. وأظن أن ما يصلح له يصلح لك تماما مثله ..

فأجابه لينتون فى لهجة آمرة قاسية :

ـ إننى لن آكله .. خذه من هنا ..

فاختطف جوزيف الطبق فى حنق وأحضره إلينا ، حيث دفع به تحت أنف هيثكليف قائلا :

ـ هل فى هذا الطعام شىء يعيبه ؟ ..

ـ ما الذى يمكن أن يعيبه ؟ ..

ـ لست أدرى .. ولكن ذلك الصبى الرقيق الأنيق يقول إنه لا يستطيع أن يأكله !!.. وأحسبه على حق ، فقد كانت أمه مثله تماما لا تستطيب طعامنا !

فأجابه السيد غاضبا :

ـ إياك أن تذكر أمه أمامى .. اذهب فأحضر له من الطعام ما يوافقه ويستطيع أن يأكله ، وهذا كل شىء .. ما هو طعامه المعتاد يا نللى ؟ ..



عاد جوزيف يحمل طبقا من عصيدة اللبن ، وضعه أمام لينتون الذى ظل يتململ أمام الطعام التقليدى للمنزل ..

فاقترحت أن يأتوا له بلبن ساخن أو قدح من الشاى ؛ وسرعان ما تلقت مدبرة المنزل التعليمات اللازمة لإعداد شيء من ذلك .. فسررت ، وقلت فى نفسى ان أنانية أبيه سوف تساهم فى تهيئة وسائل الراحة له ، فإنه يرى تكوينه الضعيف وحاجته إلى أن يعامل فى رفق بالغ .. ولسوف يتعزى مستر ادجار عندما أخبره بالتحول الذى طرأ على خلق هيثكليف ..

وإذ لم يعد لى عذر فى التوانى والبقاء اكثر من ذلك ، فقد تسللت خارجة ، بينما كان لينتون مشغولا ، يرد فى حياء ملاطفات احد الكلاب .. ولكنه كان من التيقظ والانتباه بحيث لم يمكن خداعه .. فما كدت أغلق الباب ، حتى سمعته يصيح ويردد فى فزع هذه الكلمات :

ــ لا تتركينى ! .. لا أريد البقاء هنا ! .. لا أريد البقاء هنا ..

وعندئذ سمعت صرير المزلاج وهو يرتفع ويهبط ليوصد الباب ، وأدركت أنهم يحولون بينه وبين الخروج ، فأسرعت امتطى ظهر المهر ، واستحثه على العدو .

وعلى هذا النحو انتهت مدة حراستى القصيرة لليتيم الصغير ..

* * *

الفصل الحادى والعشرون

كانت مهمتنا مع كاثى الصغيرة شاقة مؤلمة فى ذلك اليوم .. فقد استيقظت من النوم وهى تفيض مرحا وسرورا ، وتتلهف إلى لقاء ابن عمتها .. وما أن بلغتها انباء رحيله حتى راحت تذرف الدمع المرير ، وتنتحب فى نشيج اليم ، بحيث اضطر ادجار نفسه إلى تهدئتها بالتأكيد لها بأنه سوف يعود ثانية ، وإن كان قد احتاط فأردف قائلا : « ان استطعت إليه سبيلا » ، ولم يكن ثمة أمل فى ذلك .. وقد أفلح هذا الوعد فى تهدئة روعها قليلا ، ولكن الزمن كان أعظم قدرة وأبعد أثرا .. فعلى الرغم من أنها كانت لا تفتأ ، بين الحين والحين ، تسائل أباها عن موعد عودة لينتون ، فإنها قبل أن يقدر لها أن تراه مرة ثانية ، كانت ملامحه قد اختلطت فى ذاكرتها وجللتها غلالة من النسيان ، بحيث لم تعرفه عندما رآته !

وكنت كلما قابلت مدبرة منزل « مرتفعات ويذرنج » عند زيارتى لقرية « جيمرتون » لقضاء مهمة فيها ، سألتها عن حال السيد الصغير وصحته ، إذ كان يعيش فى عزلة مثل كاثرين نفسها ، فلا يراه أحد ولا يرى أحدا .. فكنت أستشف منها أنه ما يزال على ضعف صحته ، وأنه رفيق كثير النكد والمشاكسة .. وقد ذكرت لى أنه يبدو أن مستر هيثكليف يزداد له مع الأيام كراهية ومقتا ، وإن كان يجهد فى إخفاء ذلك .. فقد كان شديد النفور من سماع صوته ، ولا يطيق جلوسه معه فى حجرة واحدة أكثر من بضع دقائق ، وقلما كانا يتبادلان

من الحديث اكثر من كلمات معدودات .. فقد كان لينتون يستذكر دروسه ويقضى أمسياته فى حجرة صغيرة يطلقون عليها اسم « البهو » تجوزا ، أو يمضى يومه كله راقدا فى فراشه إذ لم تكن تفارقه نوبات السعال أو البرد أو الأوجاع أو الآلام من نوع ما .. وأضافت المرأة قائلة :

ـ وما رأيت فى حياتى مخلوقا رعديدا خائر القلب ، أو مفرطا فى الحرص على نفسه مثل هذا الصبى .. فإنه سوف يموت حتما إذا تركت النافذة مفتوحة قليلا عند حلول المساء .. وإذا مسته نسمة من نسمات الليل العليلة فإنها سلاح قاتل فتاك ! .. ولا بد من أن توقد له المدفأة فى أشد أيام الصيف حرا .. ودخان الطباق فى غليون جوزيف غاز سام سوف يقضى عليه ! .. وهو يصر على أن تكون لديه دواما أنواع مختلفة من الحلوى والفطائر .. اما اللبن فلا ينقطع عنه .. اللبن دائما ابدا .. وهو فى ذلك لا يعبأ البتة بما يصيبنا من برد الشتاء القارس عندما يغتال نصيبنا منه .. وترينه دائما يجلس فى مقعده بجوار المدفأة ، ملتفا بمعطفه ذى الفراء ، وإلى جانبه بعض الفطائر وقدح من الماء أو غيره من السوائل يضعه على رف المدفأة ليظل ساخنا فيرشف منه جرعة بعد أخرى .. وإذا أشفق عليه هيرتون وأتى ليسليه قليلا ـ وهيرتون طيب القلب ، وإن كان جافا خشنا ـ فإنهما سرعان ما يفترقان وأحدهما يسب ويلعن والثانى ينشج بالبكاء والنحيب ! .. وفى يقينى أن السيد كان خليقا بان يسر كثيرا لو أن هيرتون ظل يضربه حتى يحيله جثة هامدة ، لولا أنه ابنه . وكذلك أعتقد أنه خليق بأن

يطرده لو عرف نصف ما يخفيه الصبى على نفسه من رعاية وحيطة وتدليل ! .. ولكنه قلما يتعرض لخطر الإغراء بذلك ، فإنه لا يدخل « البهو » قط ، وإذا أظهر لينتون شيئا من هذه الأساليب فى حجرة الجلوس حيث يقعد ، فإنه يطرده من الحجرة ويأمره بالصعود إلى الطابق العلوى على الفور ..

وقد حدست من هذا الحديث أن حرمان هيثكليف الصغير من العطف والحنان كلية قد جعله أنانيا سيىء الخلق حتى ولو لم يكن كذلك أصلا .. وهكذا تضاءل اهتمامى به ، ولو اننى شعرت بنوع من الأسى لمصيره ، وودت لو انه ترك معنا .. وكان مستر ادجار يشجعنى على الحصول على المزيد من المعلومات عنه ، واحسب أنه كان يفكر فيه كثيرا ، ولا يتأخر عن المجازفة فى سبيل رؤيته .. وقد طلب إلى مرة أن أسأل مدبرة المنزل إن كان ياتى إلى القرية احيانا ؟ .. فعلمت منها انه لم يذهب للقرية إلا مرتين ، راكبا جوادا ، وفى صحبة والده .. وفى كل من المرتين كان يدعى أنه منهوك القوى ثلاثة أيام أو أربعة بعدها ..

وقد تركت تلك المرأة خدمة المنزل ـ إذا صدقت ذاكرتى ـ بعد عامين من مجيئه ، وخلفتها أخرى لم أكن أعرفها ، ما تزال هناك حتى الآن ..

ومرت الأيام « بالجرانج » على نهجها السابق البهيج ؛ حتى بلغت مس كاثى السادسة عشرة من عمرها .. ولم نكن نحتفى بعيد ميلادها على الاطلاق ، لأنه كان يوافق ذكرى وفاة سيدتى الراحلة .. وكان والدها قد اتخذ لنفسه عادة

لا تتغير ، هى أن ينفرد بنفسه ذلك اليوم فى المكتبة ، ثم يسير عند الغسق إلى فناء كنيسة جيمرتون حيث يطيل زيارته لقبر زوجته حتى منتصف الليل .. وهكذا كانت كاثرين تترك لتحتفل بعيد ميلادها بنفسها ، وبوسائلها الخاصة ..

وفى العشرين من مارس من ذلك العام ، كان اليوم من أيام الربيع الجميلة المشرقة .. فما أن بدأ والدها اعتكافه حتى نزلت سيدتى الصغيرة ترتدى ثياب الخروج ، قائلة إنها استأذنت أباها لتقوم بجولة عند أطراف البرارى والأحراش معى ، فأذن لها مستر لينتون بذلك ، بشرط أن نذهب إلى مسافة قريبة وأن نعود بعد ساعة ، وأردفت كاثى صائحة :

ـ أسرعى إذن يا ايلين .. إننى أعرف أين أريد الذهاب .. حيث يقيم سرب من طيور الأحراش ، أود أن أرى إن كانت قد أقامت أعشاشها بعد ..

فأجبتها :

ـ لابد أن يكون ذلك على مسافة بعيدة وارتفاع عال .. فالطيور لا تعشش عند أطراف البرارى ..

ـ كلا .. إنها ليست مسافة بعيدة ، وقد ذهبت بالقرب منها مع أبى ..

فوضعت قلنسوتى واندفعت معها إلى الخارج ، دون أن أعير الأمر اهتماما أو أفكر فيه مرة ثانية .. وكانت تقفز أمامى فتسبقنى ، ثم تعود إلى جانبى ، ثم تجرى أمامى من جديد كأنها كلب صيد صغير يرافق صاحبه .. ولقد تملكتنى

ـ فى بادىء الأمر ـ نشوة من الطرب عندما سمعت أصوات القنابر وهى تصدح من قرب ومن بعد ، واستمتعت بأشعة الشمس الدافئة اللذيذة ، وعندما رحت أرقب طفلتى المدللة وبهجتى الغالية ، بغدائرها الذهبية السابحة فى الهواء خلفها ، ووجنتيها المتوردتين المتالقتين ، كأنهما فى نعومتهما وصفائهما ونضارتهما وردتان بريتان متفتحتان ، وعينيها اللتين تشعان بهاء ومرحا ولا تظللهما سحب المتاعب والأحزان .. كانت فى تلك الأيام مخلوقة سعيدة ، وملاكا طاهرا .. وليتها استطاعت ، وقتئذ ، أن تقنع بما كانت فيه !

وما لبثت أن قلت :

ـ حسنا .. أين طيورك البرية يا مس كاثى ؟ .. كان ينبغى أن نكون عندها الآن ، فقد بعدنا عن بساتين « الجرانج » كثيرا ..

وكانت تجيبنى باستمرار :

ـ آه ! .. إنها غير بعيدة من هنا .. هى على بعد قليل يا ايلين .. تسلقى تلك الرابية ، واعبرى ذلك الجسر ، وما أن تصلى إلى الجانب الآخر حتى تجدينى عند الطيور !

وكم من رابية تسلقتها وكم من جسر عبرته ، حتى بدأت أخيرا أحس بالتعب والإجهاد ، فقلت لها إننا يجب أن نتوقف ونعود أدراجنا .. وكانت قد سبقتنى بمسافة طويلة ، فطفقت أصيح منادية إياها ، ولكنها لم تسمعنى ، أو لم تكترث لندائى ، إذ ظلت تقفز هنا وهناك ، حتى اضطررت

إلى تعقبها .. وأخيرا اختفت عن ناظرى داخل تجويف بين التلال ، وقبل أن أراها ثانية كانت اقترب إلى « مرتفعات ويذرنج » بميلين عنها إلى منزلها .. وتبينت شخصين يمسكان بها ، كان أحدهما ــ فيما اعتقدت ــ مستر هيثكليف نفسه .. كانت كاثى قد ضبطت متلبسة بسرقة الطيور ، أو على الأقل بالعبث فى أعشاشها ، فإن المرتفعات كانت ضمن أملاك هيثكليف ، وكان من حقه أن يعاقب من يسطو عليها .. فلما بلغت مكانهم ، وأنا اجر قدمى المكدودتين ، رأيتها ترفع يديها مؤكدة ما تنطق به ، وهى تقول :

ــ إننى لم آخذ شيئا ، ولم أجد شيئا .. ولم يكن فى نيتى أن آخذها لو وجدتها .. ولكن أبى أخبرنى بوجود الكثير منها هنا فوق التلال ، فوددت أن أرى البيض ..

فرمقنى هيثكليف بأنظاره وهو يبتسم ابتسامة شريرة تنم عن معرفته من تكون الفتاة ، وبالتالى عن نواياه الخبيثة نحوها ، ثم سأل عمن عساه يكون « أبوها » .. فأجابته :

ــ إنه مستر لينتون صاحب « ثرشكروس جرانج » .. وقد ادركت انك لم تعرفنى وإلا ما خاطبتنى بهذه اللهجة !

فقال فى سخرية :

ــ أتحسبين إذن أن أباك عالى القدر رفيع المكانة موفور الاحترام ؟ ..

فراحت كاثرين تحدق فيه بأنظارها فى دهشة واستغراب، قائلة :

ــ ومن تكون أنت ؟.. ثم إننى رأيت هذا الرجل من قبل ، فهل هو ابنك ؟ ..

وأشارت إلى هيرتون ، الذى كان ثانى الاثنين ، والذى لم يكن قد اكتسب إلا زيادة فى الحجم والقوة فضلا عن عامين من عمره ، وإن كان يبدو على ما عهدته فيه من خشونة وجلافة ..

فأسرعت أقاطعها قائلة :

ــ سوف يطول غيابنا ثلاث ساعات، يا مس كاثى، لا ساعة واحدة .. ولا بد لنا حقا من العودة إلى المنزل الآن ..

فأجابها هيثكليف وهو يزيحنى جانبا :

ــ كلا .. إن هذا الرجل ليس ابنى .. ولكن لى ابنا رأيته أنت من قبل أيضا .. ومع أن مربيتك فى عجلة ، إلا اننى أرى من الخير لك ولها أن ترتاحا قليلا .. فهل لك أن تدورى حول هذه الدغلة ، وتسيرى إلى منزلى ؟.. إنكما إذا ارتحتما قليلا فستعودان إلى داركما فى وقت مبكر عما تفعلان لو سرتما الآن .. ثم إنك سوف تلقين منا كل ترحاب ..

فهمست إلى كاثرين أنه لا ينبغى إطلاقا أن تلبى هذه الدعوة ، وأن تثق فى كلامى بأن هذه الزيارة أمر لا يمكن حدوثه ، فإذا بها تسائلنى بصوت عال :

ــ لماذا ؟ .. لقد تعبت من الجرى ، والعشب هنا ندى لا أستطيع الجلوس فوقه ، فدعينا نذهب يا ايلين .. ثم إنه يقول إننى رأيت ابنه .. ولكنى احسبه مخطئا فى ظنه .. وفى وسعى أن أحدس أين يقيم .. فى ذلك المنزل الريفى

الذى زرته أثناء عودتى من « صخور بنستون » ذلك اليـــوم .. الست تقيم هناك ؟ ..

فأجاب هيثكليف :

ـ بلى .. وانت يا نللى ، امسكى لسانك ، فإن زيارتهـا لنا سوف تكون مبعث سرور لها .. تقـدم أمامنا يا هيرتون مع الآنسة ، أما انت يا نللى فسوف تسيرين معى ..

فصحت ، وقد اخذت أحاول التملص من قبضـته على ذراعى :

ـ كلا .. إنها لن تذهب إلى مثل هذا المكان !

ولكنها كانت وقتئذ توشك أن تصل إلى الدرج الخارجى للمنزل ، بعد ان راحت تركض بأقصى سرعتها حول آدغـال الأحراش .. ولكن المعين لمرافقتها لم يستمر فى مهمته ، فقد أسرع بالابتعاد عند جانب الطريق واختفى عن الأنظار ..

فاستطردت قائلة :

ـ إن ما تفعله يا مستر هيثكليف خطأ بالغ الخطورة .. فأنت تعرف أنك لا تضمر خيرا .. سوف ترى الفتاة لينتون ، وسوف تعود لتروى كل شىء لأبيها بمجرد وصولنا ، وبذلك ينصب اللوم كله فوق رأسى ..

ـ إننى أريدها على أن ترى لينتون ، فإنه يبـدو أحسن حالا هذه الأيام ، وهو قلما يكون فى حالة تصلح لأن يراه أحد .. وسوف نقنعها الآن بأن تبقى أمر هذه الزيارة فى طى الكتمان .. فأين الضرر فى ذلك ؟ ..

ـ الضرر فى ذلك هو أن والدها سوف يحنق على إذا تبين أننى سمحت لها بدخول منزلك .. كما أننى مقتنعة تماما بأن لك غرضا خبيثا فى تشجيعها على ذلك .

ـ بل إن غرضى شريف على قدر المستطاع ، وسأخبرك بكل تفاصيله فى صراحة .. فانا أريد أن تتوثق الصـلة بين ابن العمة وبنت الخال ، وأن يتحابا ثم يربط الزواج بينهما .. وإنى فى ذلك أسدى يدا كريمة إلى سيدك نفسه .. فإن ابنته الصغيرة لا أمل لها ولا مستقبل فى وراثته ، فإذا عملت بمـا يطابق رغباتى فإن ذلك يكسبها الحق فى مشاركة لينتون ميراث خاله .

ـ إذا مات لينتون ـ وهو أمر قريب الاحتمال لأن حياته غير مضمونة ـ فإن كاترين ستكون الوارثة .

ـ كلا .. إنها لن تكون الوارثة .. فليس فى الوصية نص يضمن لها ذلك .. وإنما سوف تنتقل أملاكه إلى .. ولكى نضع حدا لهذا الجدل العقيم ، أقول لك إننى أريد أن يتزوجا وقد استقر عزمى على تنفيذ إرادتى ..

فقلت له حانقة :

ـ أما أنا فقد استقر عزمى على ألا تقرب كاثى منزلك معى مرة أخرى ..

فأمرنى بأن ألزم الصمت ، إذ كنا قد وصلنا إلى البـوابة حيث وقفت مس كاثى فى انتظارنا .. ثم سـبقنا فى الممر ليفتح لنا باب المنزل .. وكانت سـيدتى الصغيرة لا تفتأ ترمقه بالنظرة تلو النظرة ، كأنما لا تستطيع أن تستقر على رأى قاطع فى حقيقة أمره .. وكان كلما التقت عيناه بعينيها ،

ابتسم فى وجهها ، وكلما تحدث إليها رقق من صـوته فى خطابها .. وقد بلغت بى البلاهة أن تصورت أن ذكرى أمها قد تلين قلبه وتحول دون رغبته فى إيذائها ..

وكان لينتون يقف بجوار المدفأة ، وقد عاد من نزهته بين الحقول ، إذ كان لا يزال مرتديا قبعته وكان يطلب إلى جوزيف أن يأتيه بحذاء جاف .. وكان قد ازداد طولا بالنسبة لسنه ، فما زالت تنقصه بضعة أشهر ليبلغ السادسة عشرة .. أما ملامحه فقد احتفظت بجمالها ، وازدادت عيناه تألقا ، وبشرته توردا عما أذكره عنها .. ولو أنه كان تألقا وقتيا اكتسبه من الهواء العليل والشمس الساطعة ..

وتحول مستر هيثكليف نحو كاثى ، سائلا :

ـ من هذا ؟ .. هل تعرفينه ؟ ..

فراحت تنقل أنظارها بين الواحد والآخر فى تشكك ، قبل أن تجيب :

ـ أهو ابنك ؟ ..

ـ نعم .. نعم ولكن هـل هذه أول مرة ترينه فيها ؟ .. فكرى قليلا .. آه ! .. إن ذاكرتك ضعيفة خائرة .. وأنت ، الا تذكر ابنة خالك التى اعتدت أن « تهوسنا » برغبتك فى رؤيتها يا لينتون ؟ ..

فما أن سـمعت الاسم حتى اضـطرمت بالفرحة الطاغية والدهشـة البالغة وصاحت قائلة :

ـ ماذا ؟ .. لينتون ؟ .. أهذا لينتون الصـغير ؟ .. ولكنه يفوقنى طولا الآن ! .. هل أنت لينتون حقا ؟ ..

فتقدم الفتى نحـوها مؤكدا أنه بعينه .. فراحت تقبله فى حرارة بينما كانا يتبادلان نظرات العجب مما أحـدثه الزمن من تغيير فى مظهر كل منهما .. كانت كاثرين قـد بلغت غاية طولهـا ، وغـدت ملفوفة العود فى غير بدانة ، رخصة البدن فى قوة فولاذية ، تشـع بالصحة والحيوية الدافقة .. أما لينتون فكانت نظراته وحركاته واهنة ضعيفة ، وجسمه مفرط النحـول ، ولكن كان فى مسـلكه ومظهره رشاقة تلطف من هذه العيوب ، وتجعله يبدو مقبولا .

وبعد ان فرغت من تبادل آيات الود العديدة مع ابن عمتها ، مضت نحو مستر هيثكليف الذى كان يقف بجانب البـاب ، مقسما انتباهه بين داخل البيت وخارجه ، متظاهرا بالنظر إلى الخارج وهو فى الحقيقة يرقب من فى الداخل فحسـب .. فهمت على أطراف أصابعها لتقبله وهى تهتف قائلة :

ـ انك زوج عمتى إذن ؟ .. والله لقد احببتك ، برغم عبوسك وتقطيبك فى بادىء الأمر ! .. ولكن لمـاذا لا تحضر لزيارة « الجرانج » مع لينتون ؟ .. اليس من العجيب أن نكون جيرانا متلاصقين كل هذه السنين ثم لا تزورنا قط ؟ .. لماذا بالله فعلت ذلك ؟ ..

فأجاب :

ـ لقد زرت « الجرانج » مرة أو مرتين ، اكثر مما ينبغى ، قبل مولدك .. ولكن رويدك .. يا للعنة ! .. إذا كان لديك الكثير من القبلات ، فوفريها وامنحيهـا للينتون .. فانك تضيعينها عبثا فوق وجهى !

وتركته كاثرين ، وطارت إلى لتهاجمنى بقبلاتها المسرفة وهى تصيح :

ــ وأنت يا ايلين .. أيتها الخبيثة الشريرة ! .. كم جاهدت فى منعى من الدخول ! .. ولكنى سوف أسير إلى هنا كل صباح فى المستقبل .. هل تسمح لى بذلك يا عماه ؟ .. وهل احضر أبى معى أحيانا ؟ .. هلا يسرك أن ترانا ؟ ..

فأجاب « العم » وهو لا يكاد يستطيع إخفاء القطوب الذى علا وجهه ، والناتج من نفوره من كلا الزائرين :

ــ آه .. طبعا .. طبعا ..

وما لبث أن واجه السيدة الشابة ، مستطردا :

ــ ولكن مهلا .. لقد فكرت فى الأمر ، ووجدت من الخير ان أخبرك بالحقيقة .. فإن مستر لينتون ناقم على ، إذ تشاجرنا مرة فى حياتنا ، فى ضراوة وقسوة .. ولو ذكرت له شيئا عن قدومك إلى هنا فسوف يعترض بشدة على زياراتك لنا .. ولذلك ارى انه لا يجب ان تخبريه بهذه الزيارة ، إلا إذا كنت قليلة الحرص على رؤية ابن عمتك فى المستقبل .. إن لك أن تحضرى كلما شئت ، ولكن لا تذكرى له ذلك ..

فسألته فى استخذاء : ولماذا تشاجرتما ؟ ..

ــ كان يرى أننى من الفقر بحيث لا أصلح زوجا كفؤا لأخته .. ثم حزن لفوزى بها ، واعتبر ذلك إهانة لكبريائه ، لا يمكن أن يغفرها لى البتة ..

فقالت الفتاة :

ــ هذا خطأ منه ، وسوف أخبره بذلك يوما من الأيام .. ولكنى ولينتون لا شأن لنا ولا دخل بمنازعاتكما .. وما دمت لن أحضر إلى هنا ثانية ، فعليه ان يأتى إلى « الجرانج » ..

فغمغم ابن عمتها :

ــ ان المسافة بعيدة لا استطيع سيرها .. وسوف يقتلنى المشى أربعة أميال حتما .. كلا .. تعالى انت إلى هنا يا مس كاثرين ، بين آن وآخر .. لا كل صباح كما قلت ، بل مرة أو اثنتين كل اسبوع !

فصوب هيثكليف نحو ابنه نظرة تفيض بالمرارة والازدراء ، وهمس يقول لى :

ــ أغلب ظنى ، يا ايلين ، أن جهودى سوف تذهب هباء .. فإن « مس كاثرين » ، كما يدعوها هذا الغلام التافه ، سوف تفطن سريعا إلى حقيقة قيمته ، فتطرحه وراء ظهرها ، أو تبعث به إلى الشيطان ! .. آه لو كان هيرتون محله ! .. اتعلمين أننى كثيرا ما اشتهيت لو كان هيرتون ابنى برغم ما هو فيه من ضعة الآن .. لقد كنت خليقا بأن أحب الفتى لو لم يكن ابن هندلى ! .. ولكنى أحسبه بمنجاة من حبها ! .. وسوف أدفع به لمنافسة هذا المخلوق الحقير ، إلا إذا نفض هذا عن نفسه خموله .. والواقع اننا لا نقدر انه سوف يعيش حتى يبلغ الثامنة عشرة .. آه .. لعنة الله على هذا المخلوق التافه الهزيل !.. إنه منهمك فى تجفيف قدميه ، ولا يلقى إليها بالا أو اهتماما ! .. لينتون !

فأجاب الصبى : نعم يا ابتاه ..

ـ أليس لديك ما تصحب ابنة خالك لرؤيته خارج الدار ؟ .. ولو بعض الأرانب أو أعشاش ابن عرس ؟ ! .. خذها يا بنى إلى الحديقة ، قبل أن تستبدل حذاءك ، واصحبها إلى الاسطبل لتريها جوادك ..

فتمتم لينتون مخاطبا كاثى فى نبرات تنم عن نفوره من التحرك من مكانه :

ـ الا تفضلين الجلوس هنا ؟ ..

فتطلعت الفتاة نحو الباب فى نظرات متشوقة ، وبدا عليها التلهف إلى الحركة والنشاط ، ثم أجابت فى استحياء :

ـ لست أدرى حقا !

وظل قابعا فى مقعده لا يفارقه ، بل لقد ازداد انكماشا والتصاقا بالمدفأة .. وعندئذ نهض هيثكليف ومضى إلى المطبخ فاجتازه إلى الفناء ، وسمعناه ينادى هيرتون ، وسمعنا هيرتون يلبى النداء ، وما لبث الاثنان أن دخلا إلى الحجرة .. وكان الشاب يغتسل كما بدا فى توهج وجنتيه وشعره الندى ..

فلما رآته مس كاثى ذكرت ما سمعته من مدبرة المنزل ذات يوم ، فصاحت قائلة :

ـ آه ! .. دعنى أوجه إليك سؤالا يا عماه .. أهذا ابن خالى حقا ؟ ..

ـ نعم .. إنه ابن خالك .. أفلا تحبينه ؟ ..

فبدت الحيرة فى أسارير كاثرين ، فاستطرد قائلا :

ـ الا تجدينه شابا لطيفا ؟ ..

فوقفت الفتاة الشقية على أطراف أصابعها وهمست فى أذن هيثكليف بكلمات انطلق على اثرها مقهقها .. فاربد وجه هيرتون وبان عليه الحرج ، فأدركت أنه شديد الحساسية لكل ما ينم عن الاستهانة بأمره ، وأن لديه فكرة مبهمة عن ضآلة شأنه بالنسبة لهم .. ولكن سيده ، أو حاميه ، بدد عبوسته بأن قال موضحا :

ـ سوف تكون المفضل لديها بيننا يا هيرتون ، فهى تقول إنك .. ترى ماذا قالت ؟ .. حسنا .. إنه شىء شديد الاطراء لك .. فاذهب معها ، وطف بها أنحاء المزرعة ، واسلك سبيل السيد المهذب ، فلا تنطق أمامها بكلمات غير لائقة ، ولا تحملق فى وجه الآنسة عندما تكون غير منتبهة إليك ، واغضض من بصرك عندما تنظر إليك .. وإذا تحدثت إليها فانطق بكلماتك فى بطء ووضوح ، ولا تضع يديك فى جيوبك .. هيا .. اذهب معها الآن ، وكن معها مضيفا رقيقا على قدر ما تستطيع من لطف ورقة !

ثم أخذ يرقبهما وهما يمران امام النافذة ، فإذا هيرتون ايرنشو قد أشاح بوجهه تماما عن رفيقته ، وقد بدا كأنما يدرس المناظر الممتدة امامه ، والمألوفة لديه ، فى اهتمام شخص غريب يراها للمرة الأولى ، أو استغراق فنان يرى فيها ما يشوقه ..

وراحت كاترين ترمقه من طرف خفى ، فى نظرات تنم عن الاعجاب به الى حد ما ، ثم ما لبثت أن انصرفت عنه

وراحت كاترين ترمقه من طرف خفى ، فى نظرات تنم عن الإعجاب به إلى حد ما ، ثم ما لبثت أن انصرفت عنه إلى البحث عن الأشياء التى تثير فضولها وتسليتها ، وهى تتواثب من مكان لآخر ، وتترنم ببعض الألحان تعويضا لها عما يعوزها من حديث بسبب صمت رفيقها ..

ومضى هيثكليف يقول لى :

ـ لقد ربطت لسانه ، فلا يجرؤ على النطق بكلمة واحدة .. هل تذكريننى يا نللى عندما كنت فى مثل سنه .. لا ، بل أصغر منه ببضع سنين ؟ .. وهل ظهرت قط بمثل هذا الغباء ، أو هذا « التنطع » كما يسميه جوزيف ؟ ..

ـ بل أسوأ منه .. لأنك كنت أكثر تجهما وعبوسا !

فتابع كلامه ، كأنما يحدث نفسه ، أو ينطق بما يجول بخاطره :

ـ إننى أجد فيه ما يسرنى ويشفى غليلى ، ويرضى كل ما علقته عليه من آمال ! .. ولو انه ولد ابله او معتوها لما شعرت بنصف ما استمتع به الآن من سرور ورضى .. ولكنه ليس معتوها .. وفى وسعى أن أرثى لكل ما يخالجه من مشاعر وأحاسيس ، لأننى أنا نفسى عانيتها يوما من الأيام .. وانى أعلم كل ما يكابده الآن تماما .. ولكنها ، مع ذلك ، مجرد بداية لما سوف يكابده ويعانيه فيما بعد .. ولن يكون فى قدرته قط أن ينتشل نفسه من أعماق الجهالة والجلافة التى تردى فيها .. فقد استطعت ان اظفر به بأسرع مما

ظفر بى والده الوغد ، وأن أرمى به إلى أحط مما رمانى .. فإنه يتيه فخرا بجلافته وفظاظته .. وقد علمته كيف يسخر ويزدرى كل ما ليس حيوانيا ، وأن يعده سخفا وضعفا .. أفلا تظنين ان هندلى كان يمكن أن يفخر كثيرا بابنه ، لو أتيح له ان يراه الآن ؟ .. الا يفخر بابنه مثلما أفخر أنا بابنى هــذا ؟ .. ولكن هناك فرقا شاسعا بينهما .. فأحدهما ذهب خالص ولكنه يستخدم كبعض حجارة الطريق .. والثانى صــفيح رخيص ولكنه يصقل ليحاكى آنية من الفضة ! .. ان ابنى خلو من اى شىء ذى قيمة ، ومع ذلك فاننى أستحق الثناء إذ أجعله يمضى إلى أبعد ما يمكن لشىء تافه مثله أن يبلغه .. أما ابنه هو فان له ميزات وصفات من الطراز الأول ، ولكنها ضائعة .. وقد قبرت وطمرت فى التراب حتى غدت أسوأ من عدمها .. فأنا ليس لدى ما آسف عليه .. أما هو فإنه خليق بأن يكون أشد أسفا وأسى من أى إنســان عرفته .. وأحسن ما فى الأمر ان هيرتون مولع بى ولعا شديدا .. ولعلك تعترفين بأننى فى ذلك قد بززت هندلى وتفوقت عليه .. فلو أن الوغد الميت استطاع أن يقوم من قبره ويأتى ليناقشنى الحساب على ما فعلته بولده ، لأثلج صدرى برؤية ذلك الولد نفسه يهاجمه حتى يرده إلى قبره ، وقد أحنقه أنه جرؤ على الاعتداء على الصديق الأوحد الذى له فى هذه الدنيا !

واطلق هيثكليف ضحكة شيطانية إعجابا بهذه الفكرة ! .. ولم أحر جوابا ، لأننى رأيت أنه لم يكن ينتظر الجواب .. وفى الوقت نفســه كان رفيقنا الصغير ــ الذى كان يجلس بعيدا عنا بحيث لم يســمع ما قاله أبوه ــ قد بدأ يتململ فى مقعــده ويظهر علامات القلق .. ولعــل ذلك كان ندما منــه إذ حرم نفسه من متعة اصطحاب كاثرين خشية أن ينــاله بعض التعب .. ولاحظ أبوه نظراته القلقة الهائمة من خلال النافذة ، ويده المترددة وهى تمتد نحو قبعته وترتد عنهــا ، فصاح به فى حرارة مصطنعة :

ــ قم أيها الولد الكسول ، والحق بهما .. إنهما الآن عند ركن المنزل ، بجوار خلايا النحل !

فاستجمع لينتون همته الخائرة ، وغادر مكانه بجوار المدفأة .. وكان الباب مفتوحا ، وفيما كان يجتازه إلى الخــارج سمعت صوت كاثرين تســأل رفيقها المستوحش عن تلك الكتابة المنقوشة فوق الباب .. فراح هيرتون يحملق بأنظاره إلى النقوش ، وهو يحك رأسه فى بلاهة تفوق بلاهة مهرجى الملاعب .. وما لبث أن أجاب :

ــ إنها كتابة لعينة ، ولا أستطيع قراءتها !

فصاحت كاثرين :

ـ لا تستطيع أن تقرأها ؟.. إننى أقرؤها بسهولة ، فإنها كتابة إنجليزية .. ولكنى أريد أن أعرف سبب وجودها فوق الباب .

وعندئذ قهقه لينتون طربا ، وكان ذلك أول مظهر يبديه من مظاهر السرور والانشراح ، ثم قال لابنة خاله :

ـ إنه لا يعرف الحروف الأبجدية !.. فهل يمكنك أن تصدقى وجود مثل هذا الجهل الفاحش ؟ ..

فسألته مس كاثى فى جد واهتمام :

ـ هل هو شخص طبيعى مكتمل العقل كما ينبغى أن يكون ؟ .. أم أنه غر ساذج به شذوذ ؟ .. لقد ألقيت عليه سؤالين منذ قليل فكان يبدو فى كل مرة من الغباء بحيث حسبته لا يفهمنى .. أما أنا فإنى لا أستطيع فهمه حقا !

فانبعث لينتون يضحك من جديد ، وهو يرمق هيرتون بنظرات الشماتة والتشفى ، وكان من المؤكد أن الفتى فى تلك اللحظة لم يكن يبدو مجردا من ملكة الفهم ..

ومضى لينتون يقول :

ـ ليس به من شىء سوى البلادة والكسل ، أليس كذلك يا ايرنشو ؟ .. ان ابنة الخال تحسبك ابله أو غبيا ، وهكذا

تلقى عواقب سخريتك بما تسميه : « تعليم الكتب » .. ثم هل لاحظت يا كثرين طريقة نطقه المروعة ، على غرار العوام من أهل يوركشاير ؟ ..

فزمجر هيرتون قائلا ، وهو أسرع بديهة فى إجابة رفيقه الدائم :

ـ وما الفائدة منها بحق الشيطان ؟ ..

وكان يهم بالمضى فى زمجرته شأوا بعيدا ، لولا أن الشابين أصابتهما نوبة من المرح الصاخب ، فانفجرا فى قهقهة متواصلة ، وقد طربت آنستى الطائشة إذ تبينت أنها تستطيع أن تجعل من لهجته الغريبة الريفية موضعا للمرح والتسلية .

وقال لينتون وهو يضحك ضحكة ناعمة خبيثة :

ـ وما فائدة « الشيطان » فى هذه العبارة ؟ .. لقد أمرك أبى بألا تفوه بأية كلمات غير لائقة ، وها أنت لا تستطيع أن تفتح فمك دون أن تلوك واحدة منها ! .. هيا .. حاول أن تسلك مسلك السادة المهذبين ..

فصاح الشاب الريفى حانقا :

ـ لو لم تكن أقرب إلى الفتاة منك إلى الفتى لقضيت عليك فى التو واللحظة ، أيها المخلوق التافه الهزيل !

ثم أسرع بالابتعاد عنهما وقد اشتعل وجهه بنيران الغضب والمذلة معا ، فقد كان يشعر بعمق الإهانة التى أصابته ، وبعجزه عن الأخذ بثأره ..

وكان مستر هيثكليف قد سمع هذا الحوار ، كما سمعته ، فابتسم مغتبطا إذ رآه ينصرف عنهما ، ولكنه أعقب ذلك بنظرة غريبة تفيض بالنفور والكراهية ، حدج بها ابنه ورفيقته الثرثارين ، اللذين مضيا فى حديثهما عند مدخل البيت ، وقد وجد الفتى ما ينعشه ويثير حيويته فى الحديث عن أخطاء هيرتون ونقائصه ، ورواية الأقاصيص عن تصرفاته ، كما استطابت الفتاة أقواله البذيئة الحقود دون أن تنتبه إلى ما تنم عليه من سوء الطوية .. وعندئذ بدأت أكره لينتون ، أكثر مما كنت أرثى له ، وعذرت أباه فى احتقاره واستصغار شأنه ..

ومكثنا هناك حتى العصر ، إذ لم يمكنى أن انتزع مس كاثى قبل ذلك .. ولكن من حسن الحظ ان سيدى لم يكن قد غادر حجرته ، فظل جاهلا غيبتنا الطويلة .. وكنت أتلهف على اطلاع الآنسة الشابة على حقيقة أخلاق الناس الذين غادرنا بيتهم ، ولكنها كانت قد وضعت فى رأسها أننى متحاملة عليهم ، فصاحت قائلة :

ـ آه ! .. انك تتحازين إلى جانب أبى يا ايلين .. ولقد

تبينت الآن مقدار تحيزك ، وإلا لما خدعتنى كل هذه السنين بزعمك لى أن لينتون يقيم فى مكان بعيد جدا .. إننى شديدة الغضب منك حقا ، غير أن سرورى اليوم يطغى على غضبى فيحول دون انفجاره ! .. ولكن عليك أن تمسكى لسانك عن زوج عمتى ! .. إنه عمى ! .. فاذكرى ذلك جيدا وحذار أن تنسيه ! .. أما أبى فسوف أعاتبه على شجاره معه !

وانطلقت فى الحديث على هذه النغمة حتى اضطررت إلى التخلى عن كل محاولة لإقناعها بخطئها .. ولم تذكر شيئا عن الزيارة فى تلك الليلة ، لا لشىء إلا لأنها لم تر مستر لينتون .. ولكن فى اليوم التالى افتضح السر كله ، لفرط كربى وغمى !

ومع ذلك فرب ضارة نافعة ! .. فلم يكن الأمر من السوء كما تصورت .. إذ فكرت فى أن مستر لينتون أقدر منى على حمل مسئولية التوجيه والتحذير ، وأقوى منى تأثيرا عليها .. غير انه كان كثير التردد والتهيب فى إقناعها بالأسباب القوية التى تبرر رغبته فى قطع كل صلة لها بأهل « مرتفعات ويذرنج » ، كما كانت كاثرين لا تقنعها سوى المبررات القوية لكل قيد يفرض على حريتها أو يحد من رغباتها المذللة !

فما كادت تحييه تحية الصباح ، فى اليوم التالي ، حتى هتفت قائلة :

ـ هل بوسعك ، يا ابتاه ، أن تحدس من رايت بالأمس فى نزهتى بين الأحراش ؟ .. آه ! .. أراك جفلت يا ابى ! .. وقد خانك الحذر الآن ، اليس كذلك ؟ .. حسنا ، لقد رايت .. ولكن أصغ إلى وسوف تسمع منى كيف كشفت أمرك ، وأمر ايلين ـ حليفتك ـ التى كانت ، مع ذلك ، تتظاهر بالاشفاق على ، عندما كنت أعلل النفس بالأمل ويستبد بى القلق نحو عودة لينتون إلينا ثانية !

ثم مضت تروى القصة الأمينة الكاملة لرحلتها وما انتهت إليه .. اما السيد ، فعلى الرغم من أنه كان يرمقنى بنظرات التأنيب اكثر من مرة ، إلا انه لم يقل شيئا حتى فرغت من قصتها ، وعندئذ جذبها إليه وسألها إن كانت تعرف لماذا أخفى عنها وجود لينتون فى جوارنا القريب ؟.. وإن كانت تظن ذلك لمجرد انه يأبى عليها متعة بريئة لا ضرر ولا حرج من استمتاعها بها ؟ .. فأجابته :

ـ لقد كان ذلك لأنك تكره مستر هيثكليف ..

ـ إذن فأنت تعتقدين اننى من الأنانية بحيث اهتم بمشاعرى أكثر من اهتمامى بمشاعرك يا كاثى ؟ .. كلا .. لم يكن ذلك لاننى اكره مستر هيثكليف .. بل لأن مستر هيثكليف هو الذى يكرهنى ، ولأنه أقرب الناس إلى الأبالسة والشياطين ، يجد لذته فى الإساءة إلى من يبغضهم وتدميرهم

تدميرا عند أول فرصة يتيحونها له .. وكنت اعرف أنه ما من سبيل أمامك إلى توثيق عرى الود مع ابن عمتك دون أن تتصلى به وتلقيه .. وكنت اعرف كذلك أنه سوف يبغضك لأنك ابنتى .. وهكذا اتخذت وسائل الحيطة حتى لا ترى لينتون ثانية ، لمصلحتك أنت ، لا لأى سبب آخر .. وكان فى نيتى أن اشرح الأمر كله يوما من الأيام عندما تكبرين ، ويؤسفنى اننى توانيت فى ذلك ..

فقالت كاثرين ، وهى لا تبدو مقتنعة تماما :

ـ ولكن مستر هيثكليف كان ودودا فى ترحيبه بى يا ابتاه ! .. ولم يبد أى اعتراض على لقاء احدنا بالآخر أو رؤيته له .. بل قال إن بوسعى الحضور إلى منزله كلما طاب لى ، على الا اخبرك بذلك ، لأنك كنت قد تشاجرت معه ، ولن تغفر له زواجه من عمتى ايزابيلا .. أما انت فلا تسمح لى بذلك .. فانت وحدك الملوم الآن يا ابى ! .. إنه ، على الأقل ، راض عن توطيد صداقتنا ، أنا ولينتون .. أما أنت فتقف فى سبيلها !

وإذ رأى السيد أنها لا تريد أن تصدق ما يتصف به زوج عمتها من خلق شرير ، راح يروى لها فى إيجاز مسلكه مع ايزابيلا ، ووسائل الغدر التى تملك بها « مرتفعات ويذرنج » ! ولم يكن يطيق المضى فى هذا الحديث طويلا ، لأنه على الرغم

من قلة ما ذكره عنه ، إلا أنه كان يحس نحو عدوه القديم بذلك الروع نفسه وتلك البغضاء ذاتها اللذين كانا يملآن قلبه منذ وفاة مسز لينتون .. كان لا يفتأ يردد فى فكره تلك العبارة المريرة : « كان يمكن أن تظل على قيد الحياة حتى الآن ، لولا ما فعله بها » فكان هيثكليف يبدو فى عينيه قاتلا سفاكا .. ولكن مس كاثى ــ التى لم تعرف من أنواع الشرور سوى أفاعيلها الصغيرة التافهة ، من العصيان أو العسف أو الانفعال ، الناجمة عن طبعها الحامى ، وطيشها الصبيانى . والتى كانت تندم عليها يوم حدوثها ــ ذهلت واستبدت بها الدهشة من هذا « القلب الأسود » الذى يستطيع أن يجتر الحقد والضغينة ، وينطوى على نية الانتقام كل هذه السنين ، ويتابع تدبير الخطط فى صبر وعزم دون أن يلم به شبح من تأنيب الضمير ! .. وبدت من التأثر والضيق بهذا المظهر الجديد من مظاهر الطبيعة البشرية ــ وهو شىء لم يسبق لها أن قرأت عنه فى دراساتها ، أو خطر ببالها حتى الآن ــ بحيث فضل مستر ادجار أن يكف عن متابعة الكلام فى هذا الموضوع ، فاكتفى بأن ينهى الحديث بقوله :

ــ سوف تعرفين فيما بعد ، يا عزيزتى ، لماذا أود أن تتجنبى منزل هذا الرجل وعائلته .. أما الآن ، فعودى إلى مشاغلك وملاهيك السابقة ، ولا تفكرى فيهم بعد ذلك قط ..

فقبلت كاثرين أباها ، وعكفت على دروسها فى هدوء زهاء ساعتين كعادتها ، ثم صحبته فى جولة بين الحقول .. ومضى اليوم كله كما تمضى سائر الأيام .. غير أننى عندما أوت إلى حجرتها فى المساء ، ولحقت بها لأساعدها فى إبدال ثيابها ، وجدتها راكعة بجوار الفراش وقد انخرطت فى البكاء ..

فتعجبت من ذلك ، وهتفت بها قائلة :

ــ واها لك من طفلة بلهاء ! .. لو أنك ذقت شيئا من الأحزان الحقيقية ، لخجلت من إراقة دمعة واحدة سدى لمثل هذه المعارضة التافهة لرغباتك ! .. فاحمدى الله ، يا مس كاثرين ، على أن حياتك خلو من أى حزن جوهرى ، أو ظل لمثل هذا الحزن .. وفكرى لحظة لو أن السيد ، وأنا ، قضينا نحبنا ، ووجدت نفسك وحيدة فى هذا العالم ، فكيف يكون شعورك عندئذ ؟ .. قارنى بين ظروفك الحالية ومثل هذا المصاب الجلل ، واحمدى الله على ما أولاك من أصدقاء يحبون لك الخير ويسهرون على سعادتك ، بدلا من إراقة عبراتك فى اشتهاء المزيد من الأصدقاء !

فأجابت :

ــ إننى لا أبكى من أجل نفسى يا ايلين ، وإنما من أجله هو

.. لقد كان يتوقع أن يرانى ثانية غدا ، ولكنه سوف يصاب بخيبة أمل شديدة .. وسوف يطول انتظاره عبثا ..

ــ هراء ! .. فهل تحسبينه يفكر فيك بمثل تفكيرك فيه ؟ .. أليس لديه رفيق هو هيرتون ؟ .. انك لا تجدين واحدا فى المائة من الناس يبكى فقد قريب له لم يره أكثر من مرتين فى أمسيتين متباعدتين ! .. وسوف يدرك لينتون حقيقة الأمر ولا يشغل نفسه بالتفكير فيك بعد ذلك ..

فاستوت قائمة ، وهى تقول :

ــ ولكن هل لى أن أكتب إليه رقعة صغيرة أبين له فيها السبب فى عدم حضورى ، وأرسل له معها هذه الكتب التى وعدته بإعارتها له ؟.. إن كتبه ليست فى مثل طرافة كتبى ، وكان يتلهف على الحصول عليها عندما حدثته عن جمالها وما فيها من بهجة وتسلية .. هل يمكننى أن أكتب إليه يا ايلين ؟ ..

فأجبتها فى حزم :

ــ محال أن يحدث ذلك .. ولن يحدث قط .. تكتبين إليه ، فيكتب إليك ، ثم لا يقف الأمر بعد ذلك عند حد ؟ .. كلا يامس كاثرين .. ان هذه الصلة يجب أن تقطع نهائيا ، فهكذا يتوقع أبوكِ منكِ ، وسوف أعمل على تنفيذ مشيئته ..

فبدأت تلح من جديد ، وقد اكتست أساريرها بطابع التوسل والرجاء :

ــ ولكن يمكن لرسالة صغيرة واحدة أن ..

غير أنى قاطعتها فى صرامة :

ــ صه !.. إننا لن نعود إلى الحديث عن رسائلك الصغيرة .. هيا إلى الفراش !

عندئذ رمقتنى بنظرة تقطر سما ، حتى لقد بلغ من أثرها فى نفسى أننى لم أقبل فى بادىء الأمر على تقبيلها كعادتى كل مساء ، واكتفيت بإحكام الغطاء فوقها ، ثم أغلقت عليها الباب وقد ركبنى هم عظيم .. ولكنى ترددت فى منتصف الطريق ، وندمت على مسلكى ، فعدت إليها فى هدوء .. ويا للمفاجاة ! .. كانت الآنسة تقف بجوار المنضدة وأمامها قطعة من الورق الأبيض ، وفى يدها قلم من الرصاص أسرعت بإخفائه عند دخولى ، وهى تشعر بذنبها .. وعندئذ بادرتها قائلة :

ــ انك لن تجدى من يحمل هذه الرسالة يا كاثرين ، لو استطعت كتابتها .. ولكنى الآن سوف أطفىء الشمعة وأدعك فى الظلام ..

وعندما مددت يدى بقصبة الإطفاء لأخمد ضوء الشمعة

المعلقة ، تلقيت لطمة شديدة على يدى ، وسمعتها تزمجر فى سخط « أيتها الشريرة ! » .. ولكنى لم ألق إلى الأمر بالا ، وغادرت الحجرة فى سكون .. وعندئذ أوصدت المزلاج فى عنف شديد ، وقد تملكتها نوبة من نوبات النزق والمشاكسة المألوفة منها ..

ومع ذلك فقد أتمت رسالتها وبعثت بها إلى المرسل إليه مع غلام لبان كان يحضر من القرية إلى « الجرانج » .. ولكنى لم أعلم ذلك إلا بعد انقضاء بعض الوقت .. فقد مرت الأسابيع ، واستعادت كاثى مرحها وانشراحها ، وإن كانت قد غدت مولعة ، إلى حد عجيب بالتسلل إلى الأركان والانفراد بنفسها .. وكنت إذا اقتربت منها فجأة ، وهى مستغرقة فى القراءة ، أجدها تجفل وتضم الكتاب إلى صدرها كأنما تحاول إخفاءه ، وغالبا ما كنت ألمح أطراف أوراق منفصلة تطل من بين صفحات الكتاب .. بل لقد اتخذت لنفسها عادة جديدة ، وهى التبكير فى مغادرة حجرتها والنزول إلى المطبخ حيث تظل تحوم حوله كأنما تنتظر وصول شىء لا أدرى كنهه..

وكان لها فى إحدى خزائن المكتبة درج صغير تظل تعبث بمحتوياته ساعات طويلة وتحرص كل الحرص على أخذ مفتاحه معها كلما انصرفت عنه .. فحدث ذات يوم ، بينما كانت منهمكة فى التنقيب فى درجها ، أن حانت منى نظرة

إلى الدرج ، فإذا بلعبها التى كانت تملؤه قد اختفت وحلت محلها بضعة من الأوراق المطوية .. فثار فضولى ، بل وشكوكى ، وعولت على أن ألقى نظرة على كنوزها الخفية .. وهكذا ما كادت هى والسيد يأويان إلى حجرتيهما ذات ليلة ، حتى رحت أبحث بين مفاتيحى حتى وجدت منها واحدا يفتح قفل ذلك الدرج ، ففتحته وأفرغت محتوياته جميعا فى ميدعتى ، ثم أخذتها إلى حجرتى لأفحصها على مهل ، وفى مأمن من المفاجأة .. ومع اننى كنت أرتاب فى الأمر إلى حد ما ، فقد كانت دهشتى بالغة إذ تبينت فى تلك القصاصات مجموعة من الرسائل ـــ لابد أنها كانت يومية تقريبا ـــ من لينتون هيثكليف ، كان معظمها ردودا على رسائل بعثت بها إليه .. وكانت الرسائل الأولى مقتضبة يبدو فيها التعثر ، ولكنها ما لبثت أن تحولت تدريجيا إلى رسائل غرام غزيرة العاطفة ، مليئة بالسذاجة التى تبررها سن كاتبها ، وإن كان بعضها ، مع ذلك ، يحوى لمسات رائعة أيقنت انه استعارها من مصدر أوفر خبرة وحذقا ! .. وراعنى ان ألفيت بعضها خليطا بالغ الغرابة من الحرارة والصراحة ، يبدأ بالمشاعر القوية وينتهى بالعاطفة المشبوبة ، فى ذلك النوع من الكلمات التى قد يستخدمها طالب حدث فى مناجاة حبيبة روحانية من حوريات السماء ! .. ولست أدرى إن كانت هذه الرسائل قد أشبعت كاثى وأرضت مشاعرها ،

ولكنها كانت فى نظرى من سقط المتاع ! .. وبعد أن قلبت فيها حتى اكتفيت ، جمعتها فى منديل اخفيته عندى ، ثم عدت فاوصدت الدرج على خواء ..

ونزلت سيدتى الصغيرة مبكرة ، على عادتها ، واخذت تحوم حول المطبخ ، فرحت أرقبها من طرف خفى حتى رايتها تذهب إلى الباب ، فى اللحظة التى قدم فيها غلام صغير معين .. وبينما كانت الخادمة تملأ له قدر اللبن ، رأيت كاثى تدس شيئا فى جيب سترته ، وتلتقط شيئا آخر من الجيب نفسه ، فى حركة سريعة خفية .. فتسللت ودرت حول المنزل إلى الحديقة ، وتربصت للرسول ، الذى راح يدافع فى نضال المستميت عن وديعته ، حتى انسكب اللبن على الأرض أثناء صراعه معى ، ولكنى افلحت أخيرا فى انتزاع الرسالة منه ، وانذرته بسوء العاقبة إذا لم يمض إلى منزله قدما لا يلوى على شىء .. ثم انزويت بجوار الجدار ورحت اقرأ رسالة مس كاثى الغرامية فى إمعان ، فوجدتها أشد بساطة وأعظم بلاغة من رسائل ابن عمتها .. كانت رسالة رائعة ، والحق يقال ، على رغم الحماقة التى كانت تنضح بها .. فهززت رأسى وكررت عائدة إلى المنزل أقلب وجوه الرأى فى هذا الأمر ..

وكان اليوم مطيرا ، فلم تستطع كاثى القيام بنزهتها المعتادة

فى البستان .. وهكذا ما كادت تفرغ من دروس الصباح ، حتى لجأت إلى الدرج المعهود تنشد فيه تسليتها .. وكان أبوها جالسا إلى جوار المائدة منهمكا فى القراءة ، أما أنا فقد تعمدت الاشتغال برتق أهداب ستائر النافذة ، ورحت أرقب حركاتها بعين لا تغفل ..

وما من طائر عاد إلى عشه ليجده خاويا وقد عاثت فيه يد عدو أثيم ، بعد أن كان قد تركه مليئا بأفراخ صغار تشيع فيه البهجة بزقزقتها الصداحة ، بمستطيع أن يعبر عن اليأس القاتل والحزن المرير ، فى صرخاته وخفقات أجنحته ، بأكثر مما فعلت كاثى بتلك الشهقة الواحدة التى انطلقت من صدرها ، وذلك التحول الفجائى الذى اعترى أساريرها السعيدة فبدلها تبديلا هائلا مروعا ..

فرفع مستر لينتون رأسه وهتف بها قائلا :

ـ ماذا حدث يا حبيبتى ؟ .. هل جرحت نفسك ؟ ..

فتحققت من لهجته ونظرته انه لم يكن مكتشف ذخيرتها ، فقالت لاهثة :

ـ كلا يا أبى .. لا شىء .. ايلين ! .. ايلين ! .. تعالى معى إلى الطابق العلوى فإنى مريضة !

فلبيت دعوتها وصحبتها إلى خارج المكتبة ، فما كدنا نبلغ البهو العلوى ونوصد الباب خلفنا حتى هوت على ركبتيها ، وهتفت قائلة :

ــ اواه يا ايلين ! .. أنت التى أخذتها !.. آه .. رديها إلى ، ولن افعل ذلك مرة اخرى .. لن افعل ذلك ابدا .. ولكن لا تخبرى أبى .. انك لم تخبرى ابى يا ايلين ؟ .. قولى انك لم تخبريه بالأمر ؟ .. لقد كنت مفرطة فى الحماقة، ولكنى لن افعل ذلك بعد الآن قط !

فخاطبتها فى رصانة وحزم وطلبت إليها أن تنهض قائمة ، ثم قلت :

ــ إذن فقد مضيت فى هذا الأمر شأوا بعيدا فى الخفاء ، كما يبدو الآن يا مس كاثرين ! .. لقد كان الأجدر بك أن تخجلى منها ، فلا تطلبيها ثانية ! .. فيالها من حزمة لطيفة من التفاهات تلك التى تقضين ساعات فراغك فى دراستها وحفظها !.. ولماذا ؟.. إنها خليقة بأن تطبع وتنشر !.. وماذا تحسبين السيد يرى فيها عندما انشرها تحت ناظريه ؟ .. إننى لم أطلعه عليها بعد ، ولكنى لا أخالك تظنين لحظة أننى سوف أحفظ أسرارك المضحكة هذه ! .. يا للعار ! .. لابد انك أنت التى خطوت الخطوة الأولى فى تبادل هذه

السخافات ، فانى موقنة من أن الفتى ليس خليقا بالتفكير فى مباداتك بها !

فراحت تنشج بالبكاء وقد انسحق قلبها ، وهى تقول :

ــ إننى لم افعل .. لم افعل شيئا من ذلك .. ولم افكر يوما واحدا فى حبه قبل أن ..

فقاطعتها صائحة بكل ما وسعنى من الاستنكار والازدراء :

ــ حبه ؟ .. ما شاء الله ! .. أتقولين « حبه » ؟ .. وهل سمع احد بشىء كهذا ؟.. ان فى وسعى أن أجاريك فأتحدث عن حب الطحان الذى يحضر مرة كل عام ليشترى منا الغلال! .. ما اجمله من حب ، حقا ! .. انك لم تقضى من حياتك فى المرتين اللتين رأيت فيهما لينتون اكثر من اربع ساعات ! .. فكيف تتكلمين عن الحب إذن ؟ .. هذه هى تفاهاتك الصبيانية ، وسوف أذهب بها إلى المكتبة ، وسأرى ما الذى يقوله ابوك عن مثل هذا الحب !

فوثبت على يدى لتنتزع منى كنزها الثمين ، ولكنى رفعته إلى ما فوق رأسى ، وعندئذ بدأت فى فيض من التوسلات التى انطلقت من فمها فى حرارة ولهفة ، راجية منى أن أحرق الرسائل أو افعل بها اى شىء إلا ان اطلع اباها عليها .. وإذ كنت فى الحقيقة اميل إلى زجرها وتعنيفها بمثل ميلى إلى الضحك منها (لأننى كنت أقدر أن الأمر كله لا يعدو نزق الفتيات الصغار وغرورهن) فقد تظاهرت بالتفكير فى الأمر برهة ، ثم سألتها قائلة :

ــ إذا رضيت بحرقها ، فهل تعدينني وعدا صادقا بألا تبعثى إليه أو تتلقى منه رسائل أو كتبا ــ لأننى أرى أنك قد أرسلت إليه بعض الكتب ــ أو خصلات شعر أو خواتم أو لعبا ؟ . .

فصاحت كاثرين وقد طغت الكبرياء على خجلها :

ــ إننا لا نتبادل اللعب !

ــ أو أى شىء آخر يا سيدتى العزيزة إذن . . وسوف اذهب إلى أبيك الآن ما لم تبذلى لى هذا الوعد توا . .

فهتفت قائلة وهى تتشبث بثوبى :

ــ إننى أعدك يا ايلين . . فهيا ضعيها فى النار . . هيا . . هيا . .

ولكنى عندما شرعت فى افساح مكان بين قطع الفحم بمحراك النار ، كانت التضحية أكثر من أن تطيق الفتاة احتمال آلامها ، فراحت تتوسل إلى بأن أبقى على واحدة أو اثنتين من الرسائل ، قائلة وقد تمزق قلبها :

ــ واحدة أو اثنتين فقط يا ايلين ، من اجل خاطر لينتون !

ولكنى مضيت فى مهمتى الأليمة ، ففتحت ركن المنديل وبدأت أسقط الرسائل فى النار واحدة بعد الأخرى ، والسنة اللهب تعلو فى المدفأة اقواسا . .

فصرخت كاثرين ودفعت يدها وسط النيران فاخرجت بعض الأوراق التى لم تجهز النار عليها واحترقت أطرافها فحسب ، غير مبالية بما يصيب أصابعها من تحريق ، وهى تصيح بى :

ــ سوف أحتفظ بواحدة أيتها القاسية الشريرة !

فاعدت الرسائل الباقية فى يدى إلى المنديل ، وهممت بأن أخطو نحو الباب قائلة :

ــ حسنا جدا . . ما زال لدى ما أريه لأبيك . .

عندئذ أفرغت فى الموقد ما كانت تطوى عليه يدها من اوراق مسودة الأطراف ، وراحت تستحثنى على إنهاء هذه المذبحة سريعا . . فلما فرغت من هذه المهمة جعلت أحرك الرماد لأجهز عليه . . ثم غطيته بملء مجرفة من كتل الفحم . . اما هى فقد انسحبت إلى حجرتها الخاصة وقد أطبقت شفتيها دون أن تنبس بكلمة واحدة ، وبدا عليها الشعور بما نالها من إهانة فادحة . .

ونزلت لأخبر السيد أن ما أصاب الآنسة من توعك قد زال تماما ، وأننى رأيت من الخير لها أن ترقد فى فراشها قليلا . .

ولم تنزل للغداء . . ولكنها ظهرت ثانية وقت تناول الشاى ، فإذا بها شديدة الامتقاع وقد أحمرت جفونها . . إلا أنها كانت محتفظة بهدوئها الظاهرى إلى حد يثير الإعجاب . .

وفى صباح اليوم التالى توليت اجابة على الرسالة برقعة صغيرة قلت فيها :

« المرجو من السيد هيثكليف الا يبعث بشىء من الرسائل إلى مس لينتون بعد الآن ، لأنها لن تتسلمها . . » .

ومن ذلك الوقت أصبح صبى اللبان يأتى بجيوب خاوية . .

* * *

الفصل الثانى والعشرون

مر عيد القديس ميخائيل ، وأخذ الصيف يستحث خطاه راحلا ، والخريف يقبل مبكرا .. ولكن الحصاد كان متأخرا فى ذلك العام ، وبقيت قلة من حقولنا لم يتم حصادها بعد .. وكان مستر لينتون وابنته يخرجان كثيرا للتجول بين عمال الحصاد ، فكانا يبقيان معهم ، فى مراحل الحصاد الأخيرة ، حتى الغسق .. وكان الجو فى تلك الأمسيات رطبا شديد البرودة ، حتى أصيب سيدى ببرد شديد سكن رئتيه وأبى الرحيل عنهما ، كضيف ثقيل ، واضطره إلى ملازمة الدار طيلة الشتاء لم يبرحها خلاله قط ..

اما كاثى المسكينة ، التى تملك الروع قلبها من مغامرتها الصغيرة ، فقد ازدادت حزنا ووجوما منذ أن اضطرت إلى التخلى عن الاستمرار فيها ، فكان أبوها يلح عليها فى الإقلال من القراءة ، والإكثار من الخروج للنزهة .. وإذ كانت قد حرمت رفقته ، فقد وجدت لزاما على أن أعوضها عن هذا الحرمان ــ على قدر الإمكان ــ بصحبتى لها .. ولكن هيهات ان أسد الفراغ الذى خلفه ، فلم يكن فى وسعى أن أفرغ من مشاغلى اليومية الكثيرة إلا ساعتين أو ثلاثا أكرسها لمرافقتها .. ومع ذلك كان من الجلى أنها كانت أقل ارتياحا إلى رفقتى عنها إلى صحبة أبيها ..

وبعد ظهر يوم من أواخر اكتوبر أو أوائل نوفمبر ــ وكان يوما مطيرا ، للعشب فيه وللممرات حفيف ووسوسة ،

مبعثها أوراق الشجر الجافة الندية ، وللسماء الزرقاء الباردة فيه أقنعة من السحب الكثيفة كانها سفن عظيمة تشق عباب السماء مصعدة من الافق الغربى ، ومنذرة بحمولة من المطر الغزير ــ رجوت سيدتى الصغيرة أن تعدل عن جولتها ، لثقتى من هطول الأمطار كالسيول ، ولكنها رفضت وأمعنت فى الرفض .. فخرجت معها على مضض ، بعد أن تسربلت بمعطف كبير وحملت مظلتى ، وصحبتها فى السير حتى نهاية الحديقة ، وهى نزهة جافة متكلفة كانت تقوم بها عادة إذا انحرف مزاجها ، وكانت تبدو كذلك كلما اشتدت العلة بمستر ادجار وساءت حاله عن المعتاد .. وما كان ليبوح لنا بذلك قط ، وإنما هو أمر نحدسه ــ كاثى وأنا ــ كلما طال صمته ولاحت الكآبة والانقباض فى أساريره .. ومضت تسير فى خطى حزينة متمهلة ، لا تجرى ولا تقفز كعادتها ، برغم أن الرياح الباردة كانت خليقة بأن تغريها بالعدو والتوثب .. وكنت أرمقها من طرف خفى ، فألاحظ بين الحين والآخر أنها ترفع يدها لتمسح شيئا عن وجنتها .. فرحت أتطلع حولى باحثة عن شىء اغريها به لأسرى عنها وأخرجها من لجة تفكيرها الحزين .. وكان على احد جانبى الطريق مرتفع وعر تناثرت فيه بضعة من اشجار البندق والبلوط الضامرة وقد تعرى شطر من جذورها ، وأخذت تترنح غير مستقرة فى مواضعها .. وكانت التربة فى ذلك المرتفع من الرخاوة بحيث لم تحتمل أشجار البلوط ، فانحنى معظمها ، تحت دفع الرياح الشديدة ، ومال على الأرض فى وضع أفقى .. وكانت مس كاثرين ، فى أيام الصيف ، تجد متعة فى تسلق جذوع

هذه الأشجار ، والجلوس بين أغصانها ، تتأرجح على ارتفاع عشرين قدما من الأرض .. وكنت أبتهج كلما رأيت خفتها ورشاقتها ومرحها الصبيانى ولهوها المنبعث عن قلب خال من الهموم ، إلا أننى ، فى الوقت نفسه ، كنت أجد من الأوفق أن أوجه لها اللوم كلما ضبطتها على هذا الارتفاع ، فكنت أفعل ذلك فى لهجة تدرك منها أنه ليس ثمة ما يضطرها إلى الهبوط ! .. كانت تظل منذ تناول الغداء حتى ساعة الشاى مضطجعة فى أرجوحتها التى يهزها النسيم ، لا تفعل شيئا سوى الترنم بالأغانى القديمة ــ أهازيج الطفولة التى كنت أهدهدها بها ــ أو مراقبة الطيور فى أعشاشها ومشاهدة الأب والأم صاحبى العش وهما يطعمان أفراخهما ويغريانها على الطيران ، أو تستكن فى استرخاء ، مطبقة الجفون ، يتداولها التفكير وأحلام اليقظة ، ملأى بسعادة تقصر الكلمات عن وصفها ..

واشرت إلى فجوة صغيرة بين جذور شجرة ملتوية ، وصحت قائلة :

ــ انظرى يا آنسة ! .. إن الشتاء لم يحل هنا بعد .. فهذه زهرة صغيرة فوق المرتفع هناك ، هى آخر براعم زهور الليلك التى كانت تكسو السفح كله فى شهر يوليو بغلالة زرقاء رائعة الجمال .. فهل لك أن تتسلقى الهضبة ، وتقطفيها ، لتريها لأبيك ؟

فراحت كاثى تحدق النظر طويلا فى الزهرة الوحيدة التى كانت تهتز فى مثواها الأرضى ، قبل ان تجيب أخيرا :

ــ كلا .. لن أمسها ! .. ولكنها تبدو حزينة مكتئبة .. الا ترينها كذلك يا ايلين ؟

ــ نعم .. فهى أشبه بك طهارة ونحولا .. أما ترين وجنتيك الشاحبتين كأنهما خاليتان من الدماء ؟ .. هاتى يدك فى يدى ودعينا نجر معا ، فإنك اليوم من الاعياء بحيث أحسبنى قادرة على مجاراتك !

فلم تزد على أن قالت : كلا ..

واستمرت تمشى على مهل ، وهى تتلكأ هنا وهناك لتتأمل قطعة من الطحلب ، أو خصلة من العشب الجاف ، أو ثمرة من الفطر يشع لونها البرتقالى الفاقع بين أكوام أوراق الشجر الجافة السمراء .. وكانت ترفع يدها ، بين الحين والآخر ، إلى وجهها ، وهى تشيح به بعيدا عن أنظارى ..

فدنوت منها ، وأحطت كتفها بساعدى ، وسألتها قائلة :

كاثرين .. لماذا تبكين يا حبيبتى ؟ .. ما ينبغى لك أن تبكى لأن أباك أصيب بالبرد .. واحمدى الله أنه لم يمرض بما هو أسوأ من ذلك ..

عندئذ أطلقت لدموعها العنان ، ولم تعد تعمد إلى إخفائها عنى ، وقد اختنق صوتها وأنفاسها بنشيج متتابع ، وهى تجيبنى :

ــ آه ! .. سوف يصبح مرضه أسوأ بكثير .. وماذا ترينني فاعلة إذا ذهب أبى ، وذهبت أنت ، وخلفتمانى وحدى فى

العالم ؟.. إننى لا أستطيع أن انسى كلماتك يا ايلين ، فإنها لا تكف عن الرنين فى أذنى .. فكيف تتبدل حياتى ، وكم يصبح العالم موحشا مخيفا أمامى ، عندما يحين اجل ابى ، وتدركك المنية انت الأخرى !

فأجبتها :

ـ لكل أجل كتاب ! .. ومن يدرى ، فقد تموتين قبلنا ! .. من الخطأ ان يتعجل المرء السوء قبل وقوعه ! .. فدعينا نرجو أن تنقضى أعوام وأعوام قبل أن يذهب أحدنا .. إن السيد ما زال شابا ، وأنا لم أتجاوز الخامسة والأربعين وما زلت قوية سليمة ، كما أن والدتى عاشت حتى الثمانين ، وظلت محتفظة بمرحها ونشاطها إلى النهاية ! .. وإذا فرضنا أن مستر لينتون عاش حتى يبلغ الستين من عمره ، فإن الأعوام الباقية اكثر من التى انقضت من عمرك يا آنسة ، ومن السخف أن تحزنى على مصيبة لن تحل إلا بعد عشرين عاما أو تزيد !

فتطلعت إلى فى نظرات يمشى فيها الأمل على استحياء ، كأنما تنشد فى كلماتى المزيد من الطمأنينة والعزاء ، وغمغمت تقول :

ـ ولكن عمتى ايزابيلا كانت أصغر من ابى ..

ـ إن عمتك ايزابيلا لم تجد من يعنى بتمريضها مثلك ومثلى .. ولم تلق من أسباب السعادة ، مثلما يلقى السيد ، كما لم يكن لديها ما يثير فيها حب الحياة والرغبة فى العيش

.. إن كل ما يلزمك ، يا عزيزتى ، هو أن تحسنى رعاية ابيك ، وأن تشيعى المرح والبهجة فى نفسه بأن يراك دائما مرحة مبتهجة ، وأن تتجنبى إثارة القلق فى نفسه من أية ناحية .. فاذكرى ذلك ياكاثى ولا تنسيه ! .. ولا اخفى عنك انك قد تقتلينه بطيشك واندفاعك فى عاطفة حمقاء خيالية نحو ابن شخص يسره أن يرى أباك موسدا فى قبره ، أو إذا اظهرت له انك تذوبين حزنا وأسى بسبب فراق رأى من صالحك ان يفرضه عليك ..

فأجابت قائلة :

ـ إننى لا أحزن لشىء على وجه الأرض إلا لمرض أبى .. ولا ابالى بأى شىء بجانب ابى .. ولن افعل شيئا البتة ـ مطلقا ـ لن افعل شيئا أو اقول كلمة واحدة تضايقه ، ما دمت محتفظة بجميع حواسى .. إننى احبه اكثر من نفسى يا ايلين .. وقد عرفت ذلك مما افعله كل ليلة من الصلاة والدعاء بأن أعيش بعده ، لأننى أوثر أن اتعذب وأشقى لفقده ، على أن يشقى ويتعذب إذا توفانى الله قبله .. أفلا يدل ذلك على أننى احبه أكثر من حبى لنفسى !

ـ ما أجمل هذه الكلمات ! .. ولكن الأعمال أيضا يجب أن تثبت شعورك هذا .. وارجو أن تذكرى ، عندما تتحسن صحته ، تلك القرارات التى اتخذتها فى ساعات الخوف والتوجس ..

وكنا ، أثناء حديثنا ، قد اقتربنا من باب موصد يؤدى إلى الطريق خارج الحديقة .. وكانت السيدة الشابة قد استعادت مرحها وإشراقها ثانية ، فتسلقت الجدار وجلست على قمة السور ، وأخذت تميل إلى الخارج لتلتقط بعض الثمار النابتة وسط زهور أشجار الورد البرى القرمزية ، التى تظلل جانب الطريق .. كانت الثمار السفلى قد اختفت ، اما العليا فلم يكن يستطيع الاقتراب منها ، غير الطيور وحدها ، إلا من يتخذ موضع كاثى الحالى .. وبينما كانت تميل لتجذبها نحوها سقطت قبعتها فى الطريق ، فاقترحت ان تهبط زاحفة من فوق السور لتستعيدها ، نظرا لأن الباب كان موصدا .. ورجوتها ان تكون حذرة حتى لا تقع ، وسرعان ما اختفت عن الانظار فى خفة وسرعة .. ولكن العودة لم تكن بمثل هذه السهولة ، إذ كان الجدار أملس مصقولا ، جيد الطلاء ، خلوا من أى نتوء او متكأ ، كما ان فروع شجيرات الورد الرخوة ، واغصان شجيرات الطيق الشاردة، كانت لا تقوى على أداء أية معونة عند تسلق الجدار .. اما انا فلم انتبه إلى ذلك ، لغفلتى وحمقى ، حتى سمعتها تضحك قائلة :

ــ سوف تضطرين إلى إحضار المفتاح يا ايلين ، أو اضطر إلى الانطلاق عدوا حتى كوخ الحارس .. فليس فى استطاعتى تسلق السور من هنا ..

ــ ابقى حيث أنت .. ان فى جيبى ربطة مفاتيح لعل فيها ما يفتح هذا الباب ، وإلا ذهبت لإحضار المفتاح ..

وأخذت كاثرين تتسلى بالغناء والرقص أمام الباب ريثما مضيت أجرب المفاتيح واحدا بعد الآخر ، ولكنى بلغت آخرها دون أن أجد بينها ما يطابق قفل الباب .. فأعدت عليها رغبتى بأن تبقى مكانها ، وكنت على وشك أن أهرع نحو الدار بأسرع ما فى طاقتى عندما بلغ مسامعى صوت جعلنى اجمد فى مكانى ، وكان ذلك وقع حوافر جواد يقترب مسرعا ..

وتوقفت كاثى عن الرقص كذلك ، فسألتها بصوت خفيض :

ــ من هذا ؟

وإذا برفيقتى تهمس فى لهفة بالغة :

ــ ايلين .. ليتك تستطيعين فتح الباب سريعا !

عندئذ انبعث صوت عميق (هو صوت راكب الجواد) يصيح قائلا :

ــ مهلا يا مس لينتون ! .. شد ما يسرنى أن القاك .. ولكن لا تتعجلى الدخول ، فإن هناك إيضاحا أود أن اسألكِ عنه وتجيبينى عليه ..

فأجابته قائلة :

ــ إنى لن أخاطبك يا مستر هيثكليف ، فإن أبى يقول إنك رجل شرير تمقته وتمقتنى معا ! .. وقد أيدت ايلين ذلك ..

فقال هيثكليف (وكان هو نفسه القادم) :

ـ لا شأن لذلك بالغرض الذى أحدثك من أجله .. إننى لا أمقت ابنى ، على الأقل .. والأمر الذى اود أن أسترعى انتباهك إليه إنما يخصه هو .. نعم .. يحق لك أن يحمر وجهك خجلا ! .. ألم تكونى ، منذ شهرين أو ثلاثة ، تكتبين إلى لينتون كل يوم ؟.. اكنت تتخذين من الحب ملهاة ومسلاة إذن ؟.. إنكما ، كلاكما ، تستحقان الجلد بالسياط جزاء وفاقا، وخصوصا انت ، لأنك اكبر سنا ، وأبلد شعورا ، كما وضح فيما بعد ! .. ولكنى حصلت على خطاباتك ، وسوف أبعث بها إلى أبيك إذا لم تعيرى كلامى أذنا واعية ، أو أبديت استهانة بما اقول .. إننى أحسبك مللت هذه اللعبة ، فانصرفت عنها .. أليس كذلك ؟.. حسنا .. إنك عندما طرحتها عنك ، طرحت لينتون معها فى هوة من اليأس والقنوط ! .. لقد كان جادا ، لا لاهيا ولا عابثا ، فأحبك حقا .. والحقيقة الواقعة ، كوجودى على قيد الحياة أمامك . انه على وشك الموت من أجلك ، وقد سحق قلبه ـ حقا لا مجازا ـ غدرك وتقلب أهوائك .. ومع أن هيرتون ظل طوال الأسابيع الستة الأخيرة يمازحه ويلاعبه ليسرى عنه ، وعلى الرغم من أننى اتخذت نحوه تدابير أكثر صرامة ، وحاولت أن اخيفه وأروعه ليدع حمقه وغفلته ، فإنه يزداد سوءا يوما بعد يوم ، وسوف

يغيبه الثرى قبل الصيف المقبل ، إلا إذا انقذته وأعدت إليه الحياة !

فصحت من وراء الباب قائلة :

ـ كيف يمكن لك أن تكذب على الطفلة المسكينة بهذه الجراة ؟ .. امض لشأنك بالله عليك ! .. فلست أدرى كيف تختلق عن عمد هذه الترهات الخسيسة ! .. سوف أحطم القفل بحجر ، يا مس كاثى ، فلا تصدقى كلمة من هذا الهراء الخبيث .. وقد أدركت بنفسك أن من المستحيل أن يموت أحد غراما بشخص غريب عنه ..

فغمغم الشقى الذى انكشف أمره ، قائلا :

ـ لم اكن أعلم أن هناك جواسيس يسترقون السمع ! .. أهذه أنت يا مسز دين العظيمة ؟ .. إننى احبك ، ولكنى لا أحب نفاقك يا ذات الوجهين !

ثم استطرد يقول بصوت عال :

ـ وكيف يمكن لك « أنت » أن تكذبى على «الطفلة المسكينة» بهذه الجراة ، فتؤكدى لها أننى أبغضها ، وتخترعى لها من قصص الفيلان ما يخيفها منى وينفرها من بيتى ؟ .. اسمعى يا بنيتى العزيزة ، يا كاثرين لينتون (وهذا الاسم بالذات يبعث الدماء حارة فى عروقى) سوف أغيب عن منزلى طوال

هذا الأسبوع .. فاذهبى لترى بنفسك اننى لم أخبرك إلا صدقا .. اذهبى يا عزيزتى ! .. بل عليك أن تتخيلى والدك فى مكانى ، ولينتون فى مكانك ، ثم فكرى بعد ذلك كيف تكون نظرتك إلى حبيبك الجحود ، إذا أبى أن يخطو خطوة واحدة لمواساتك ، بينما أبوك نفسه يرجوه ويستعطفه ! .. ولا تقعى فى هذا الخطأ نفسه لا لشىء سوى الغباء والحمق .. إننى اقسم لك بخلاص روحى ، إنه يسير نحو القبر سيرا حثيثا ، وليس من يستطيع إنقاذه سواك ..

وتهاوى القفل تحت طرقاتى فاندفعت خارجة ، بينما كان هيثكليف يتابع كلامه لها ، وهو يحدجنى بنظرة صارمة ، قائلا:

ــ أقسم لك إن لينتون مشرف على الموت حقا ، وإن الحزن والحسرة سوف يعجلان بنهايته المحتومة ! .. وأنت يا نللى ، إذا كنت مصرة على منعها من الذهاب ، فامضى إلى هناك بنفسك لتريه بعينيك .. إننى لن أرجع من رحلتى إلا فى مثل هذا اليوم من الأسبوع المقبل ، ولا أحسب أن سيدك نفسه يطاوعه قلبه على منعها من زيارة ابن عمتها !

فقلت لكاثرين : « تعالى معى » .

وكنت قد أمسكت بذراعها وأنا لا أكاد أجرها إلى الداخل جرا ، بعد أن رأيتها تتلكأ مترددة ، وتتطلع إلى وجه محدثها بعينين يملؤهما القلق والانشغال ، بينما كانت أساريره

الجامدة من الصرامة بحيث تخفى خداعه ولؤمه .. وما لبث أن دفع بجواده إلى جانبها ، ومال فوقه نحوها ، قائلا :

ــ إننى أعترف لك يا مس كاثرين بأن صبرى قد نفد من لينتون وحالته ، كما ضاق به هيرتون وجوزيف ذرعا ، واعترف لك أيضا بأنه يعيش فى وسط سمته الفظاظة والخشونة .. وأنه يذوى سريعا لحرمانه من العطف والحب .. لذلك فإن كلمة رقيقة منك سوف تكون خير دواء له .. فلا تلقى بالا إلى تحذيرات مسز دين القاسية ، بل كونى رفيقة كريمة ، واسعى إلى رؤيته .. فإنك تتراءين له فى أحلامه بالليل والنهار ، وهو لا يتخلى عن عقيدته بأنك تكرهينه، بعد أن امتنعت عن زيارته والكتابة إليه ..

فأغلقت الباب ودحرجت وراءه حجرا ليدعمه بعد أن تحطم قفله ، ثم نشرت مظلتى وجذبت وديعتى تحتها ، إذ بدأ المطر يتساقط علينا من بين فروع الأشجار الشجية الأنين ، نذيرة لنا بالا نتوانى فى الخارج حتى لا تفاجئنا سيوله المنهمرة .. وكان إسراعنا وتلهفنا على العودة للدار يمنعاننا من التعليق على هذا اللقاء غير المتوقع مع هيثكليف ، ولكننى تكهنت ، بإلهام من غريزتى ، بأن قلب كاثرين كان ملبدا بغيوم الظلمات الكثيفة .. وكان الحزن والأسى يطبعان أساريرها بطابع غريب

بدلها تبديلا ، حتى لقد انكرتها .. وكان من الجلى أنها صدقت كل كلمة وكل حرف مما سمعته ..

ووجدنا السيد قد أوى إلى حجرته قبل عودتنا ، فتسللت كاثى إليها لتسال عن حالته ، فالفته مستغرقا فى النوم ، وعندئذ عادت لتطلب منى ان اجلس معها فى المكتبة .. وتناولنا الشاى معا ، فلما فرغنا منه استلقت على البساط ، وطلبت منى الا اتكلم ، زاعمة انها متعبة مرهقة .. فاخذت كتابا وتظاهرت بالقراءة .. وما أن حسبتنى مستغرقة فيها ، حتى بدأت بكاءها الصامت الذى يبدو أنه أصبح الآن مسلاتها المفضلة ! .. وتركتها تسرى عن نفسها برهة ، ثم اندفعت فى عتاب طويل ، محاولة تسفيه أقوال مستر هيثكليف ومزاعمه عن ابنه ، والسخرية منها ، كأنما حسبت أنها ستوافقنى .. ولكن واأسفاه !.. فلم تكن لى تلك المهارة وذلاقة اللسان الخليقة بأن تزيل عن نفسها الأثر الذى أحدثته روايته .. وكان ذلك ما يرمى إليه تماما ..

واجابتنى اخيرا :

ـ ربما كنت على حق يا نللى ، ولكنى لن أحس بالراحة قط حتى أعرف الحقيقة .... ولا بد لى من أن أخبر لينتون بانه لم يكن لى ذنب فى امتناعى عن الكتابة إليه ، وأن اقنعه باننى لن اتغير عن عهده قط ..

فما جدوى الغضب والاحتجاج إزاء سذاجتها الحمقاء ، وسلامة نيتها البلهاء ؟ ..

لقد افترقنا تلك الليلة على غير وفاق .. ولكن اليوم التالى شهدنى على الطريق إلى « مرتفعات ويذرنج » ، مهرولة بجانب مهر سيدتى العنيدة .. فلم يكن فى وسعى ان اطيق رؤيتها حزينة ، وأن أحتمل مراى وجهها الشاحب وعينيها المقروحتين بالبكاء .. ورضخت لرغبتها ، وقد تراوحنى امل واه بأن يثبت لها لينتون نفسه ، عند استقباله لنا ، مبلغ ما فى الرواية من كذب وبهتان ..





عزيزى القارئ :-

من عجب أن الشقيقات الثلاث من أسرة «برونتى» تشابهن فى كل شىء تقريبا : تشابهن فى نبوغهن الأدبى ، وهزالهن البدنى ، وقصر أعمارهن ، كما تشابهن فى خلودهن بعد الموت! .. وهكذا اقترن اسم كل منهن برواية من روائع الأدب الإنسانى : وكان نصيب صغراهن « آن برونتى» من هذا الإنتاج رواية (أجنسى جراى) ، التى تروى قصة مربية للأطفال ، وإن كان نصيب هذه الرواية أقل من نصيب (جين إير) و (مرتفعات وذرنج) . أقول إنهن تشابهن فى ضعف صحتهن ، وقصر أعمارهن ، بل وفى إصابتهن بنفس المرض الذى قضى على ثلاثتهن بالتعاقب ـ وهو مرض السل أو التدرن الرئوى ـ فماتت به « شارلوت » فى سن التاسعة والثلاثين (١٨١٦ ـ ١٨٥٥) ، وماتت به «اميلى» فى سن الثلاثين (١٨١٨ ـ ١٨٤٨) .. ثم ماتت به «آن» فى سن التاسعة والعشرين (١٨٢٠ ـ ١٨٤٩) ! والواقع أن فواجع أسرة «برونتى» لاتقف عند هذا الحد ، ولعل هذه الفواجع هى المسئولة عن الجو القاتم الذى تتسم به رواياتهن جميعًا . فقد كانت أسرة برونتى تتألف فى الأصل من ثمانية أفراد : الأب ، وهو قسيس كنيسة بجهة (هاروث) بانجلترا .. وزوجته ، ثم أطفالهما الستة ، وكانوا خمس بنات وولد ، هم بالترتيب : ماريا ، وإليزابيث ، و شارلوت ، و برانويل (وهو الابن الذكر) ، ثم إميلى ، وأخيرًا «آن» ؛ وكانت تفصل بين كل من الأطفال الستة والذى يليه نحو سنة واحدة فقط ، فلما ماتت الأم كانت ابنتها الكبرى «ماريا» فى سن السابعة . والصغرى «آن» فى عامها الأول ! وهكذا صارت «ماريا» وهى بعد فى سن السابعة بمثابة الأم للصغار الخمسة الآخرين ! بعد أربع سنوات ألحق الاب ابنتيه الكبيرتين «ماريا» و«إليزابيث» بمدرسة داخلية ـ هى المدرسة الرهيبة التى وصفتها شارلوت فى رواية (جين آير) باسم «لووود» .

حلمى مراد